

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190463

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—786—13-6-75—10,000.

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. $\text{E} \wedge 92511$ Accession No. $A 106$

Author J. Z محمد جليل سلطان

Title $\text{مدرسة حقبة 1940-1945}$

This book should be returned on or before the date last marked bel

جمیل سلطان

حزیر

قِصَّةٔ حَيَاتِهِ وَدِرَاسَةُ اشْعَارِهِ

حزير
مدي

قِصَّةُ حَيَاتِهِ وَدِرَاسَةُ أَشْعَارِهِ

بِقَلَمِ

استاذ الأدب العربي والبلاغة

جميل سلطان

لِإِسَانِيَّةٍ فِي الْحَقِّ

وَمَجَازِي فِي الْأَدَبِ

طبع بنفقة

المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم الكتبي وشركاه دمشق

مفروق الكتاب محفوظة

الطبعة الهاشمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

CHECKED 1966 عونك اللهم

تمهيد

ما عرفت العصور الأدبية العالية شعراء كجبرير والفرزدق والأخطل ،
ثار بينهم ما ثار من هجاء شغلوا به الزمن الذي عاشوا فيه ، والعصور التي
أعقبته ، ثم لم ينته الناس من الحديث عنهم إلى غاية يرضى بها المتعصبون ،
فلقد كان هؤلاء الأعلام زعماء يمثلون نواحي مختلفة من الحياة الأدبية فتفرق
الناس في الميل إليهم طرائق قدا .

ولئن تعصب الناس من قبل في الحديث عن هؤلاء ، ولئن صح عدم
اتفاق العلماء في تفضيل واحد على آخر ، فلا يصح ولا يجوز ، أن يأخذ
التعصب من بعض الباحثين مأخذه في هذا العصر الذي استفاضت فيه
مذاهب النقد والحربة والبحث فتظهر آثار التعصب فيما يكتب .

ولقد يهون الأمر لو تحدثت المتحدث عن قلبه وهواه ولم يتحدث عن
عقله وتفكيره ، لأن نوازع النفس وخلقجات الفؤاد لا يمكن أن تهتدأ وهي هي
مبعث الحب والتعصب . وأما أحكام العقل ومقاييس الفكر الذي لا يتأثر
بعاطفة فهي التي يستبين بها المرء الحقيقة الواقعية على أوضح وجه وأبين
طريقة ، وهي بعد ذلك مبعث الإعجاب والتقدير .

وعلى ألا نتعصب لفريق فيما سنعرض له ، ندرس جريراً أحد شعرائنا
الخالدين على سجييس الليالي والأيام .

الرجل

المشراج

مولده ، نشأته ، أسرته ، بيئته ، خصومته ، رحلاته ،
اتصاله بالخلفاء والأمراء والشعراء ، طبيعته ، أثر هجائه في الناس ،
الشعراء الذين هاجوه ، بخله ، أساطير من حوله ، ادعاؤه ، أحكامه
على خصومه ، آراء العلماء فيه وفي خصميه ، مشاركته في الشؤون
العامة ، ميله السياسي ، دينه وتقواه .

أهم مصادر البحث :

ديوان جرير ، الأغاني ، العمدة ، الصناعتان ، الجماهرة ،
أعلام الكلام ، نهاية الأرب ، خزانة الأدب ، النقائض ،
الوفيات وغيرها .



الرجل

قصيدة
بدي

قصيدة

تقسم الحياة في هذا الكون للمولود ، فينسب إلى أهله الذين
يدرج من عشهم ، وينشأ في بيتهم ، وما يزال يعزى إلى تلك البيئة
التي منها درج حتى يقيم لنفسه فخاراً ومجداً فينسب سواء إليه .
وكذلك كان شأن جد جرير فأنت إذا سمعت (الخطفي) أوقرأته
قيل لك إنه (جد جرير) ، فكأن هذا الخطفي نكرة يتعرف
بجفده ، وما هو بنكرة على الوجه الأصح ، لأن الرجل كان
شاعراً مجيداً ورجلاً قوياً .

وقد غلب عليه لقب الخطفي لقوله :

يرفعن لآيل إذا ما أسدفا

أعناق جنان وهاماً رُجفاً

وعنقاً بعد الكلال خيطفي (ويروى خطفي)

واسم الخطفي عوف وقيل حذيفة بن بدر من يربوع ثم من

تميم ثم من مضر بن نزار .

أما ابنه عطية (أو عطاء) فيظهر أنه كان دون ذلك ، كان

معدماً لا خطر له ، ولكن معرفة المعارف في هذه الأسرة هو

جرير بن عطية بن الخطفي وإنما أسموه جريراً لقصة أشبه بالخيال
منها بالحقيقة ، ومن يدري فلعلها مما اختلق الرواة القصاصون ، وقدماً
اختلفوا ما لم يكن ، حينما رأوا الناس ولوعين بكل غريب
متطلعين لكل طريف ، فقد زعم أبو عبيدة ولم يكن ثقة « أن أمه
رأت وهي حامل به كأنها ولدت حبلاً من شعر أسود ، فلما
سقط منها جعل ينزو فيقع في عنق هذا فيخنقه ، حتى فعل ذلك
برجال كثيرة ، فانتبهت فزعة ، فأولت الرؤيا ، فقل لها تلدين
غلاماً شاعراً ذا شر وشدة شكيمة وبلاء على الناس . فلما ولدته
سمته جريراً باسم الجبل الذي رأت أنه خرج منها » .

ولسوف ترى أن هذه الأوصاف التي وصف بها الجنين لا
تفرق في شيء عما وصف به شاعرنا حين اشتد عزمه وقويت شوكته ،
ولعل هذا التعليل للاسم كان تعليلاً للشيء بعد وقوعه .
وهذا الجنين لم يستقر في محبته المدة المقدره له وإنما ظل سبعة
أشهر ، وتعجل إلى الدنيا وكان في ذلك معرفة له استعان بها خصمه
الفرزدق عليه .

وأرسل صوته الأول في هذه الحياة الدنيا زمن خلافة عثمان
فكأنما جاء والشر جنين سابع ، أو طفل راضع ، وكما شب

ثبت معه الأحداث ، وكلما ترعرع كانت تبدو عليه أمارات
الشكاسة والعسر ، وكانت أمه ترقصه وتذكر رؤياها فنقول على
ما زعم بعض الرواة :

قصصت رؤياي على ذاك الرجل فقال لي قولاً وليت لم يقل
لتلدين عضلة^(١) من العضل ذا منطق جزل إذا قال فصل
مثل الحسام العصب مامس قصل^(٢) يعدل ذا الميل ولما يعدل

وإذا صح هذا تبينت بيئة جرير الشاعرة من جهة أبويه .
وولدت أمه حقة بنت معبد الكلبية ستة بنين وهم قيس وعمرو
وجرير وأبو الورد وعمران وحكيم وكلهم أبناء عطية .
ولعل له إخوة أكثر من ذلك ، ولعل قيساً وعمر ولدان آخران
لعطية أغفل ذكرهما الذاكرون .

وما يهمننا أن يكون له إخوة ثلاثة أو أربعة أو عشرون
ما دامت البيئة التي عاشوا فيها ليست بيئة تناصر وتحاب وألفة ،
وإنما كانت حياتهم تقوم على التحاسد الذي يدفع مكارم الأخلاق .
وما ابتلي جمع بهذا الداء العياء إلا أفسد سرائرهم ، وشنت شملهم ،

(١) العضلة = الداهية . (٢) قصل = قطع .

وزرع فيهم الضغينة والشحناء ، ثم اذهب ربحهم فكان لم
يغنوا بالأمس .

والتحاسد شر في المجتمع الكبير ، وشر في المجتمع الصغير فإن
نشأ الطفل عليه ، لم ينعم بلذة الحب ، ولم يعرف قيمة الاجتماع ،
وفي ذلك نقول عن إخوة جرير ، ونشير إلى هذه الغراس
الأولى التي جعلت الشاعر منذ نعومة أظفاره ينظر إلى الناس
نظر الحذر والريبة ، وكيف يأمنهم وقد رأى الحسد في وجه أخيه .
قيل إن إبلاً لجرير شردت فشمت به أبو الورد أخوه فقال :
أبا الورد أبقى الله منها بقية كفت كل لوأم خذول وحاسد
وأما عمرو فكان يقارضه الشعر فقال له يعاتبه :

أعمرو وقد كرهت عتاب عمرو وقد كثر المعاتب والذنوب
وقد صدعتُ صخرة من رماكم وقد يرمى بي الحجر الصليب
وقد قطع الحديد فلا تماروا فرند لا يفل ولا يذوب
ويظهر أن جريراً كان مُعِيلاً يقوم بأمر ثمانية وثمانين نفساً .
فلقد خاطب هشام بن عبد الملك فقال له :

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم لم أحص عدتهم الا بعداد
كانوا ثمانين^(١) أو زادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

(١) (أو) بمعنى (بل) أو بمعنى (الواو) العاطفة .

وكان له من أولئك ابن بكر يدعى حزرة ، وبه كان يكنى
وله من الذكور غير حزرة سبعة ، ومن الإناث ابنتان .

نعرف من هؤلاء بكره حزرة ، ونعرف بلال بن جرير ،
فقد كان شاعراً متصلاً بأئمة الأدب في عصره ، وقد نقل عنه
الأصمعي وغيره من كبار الرواة .

وجاء من نسله عمارة بن عقيل بن بلال ، وكان عمارة وعقيل
يحدثان عن جرير . ولعمار يرجع الفضل بجمع ديوان شاعرنا .
وقد نقل عنهما الرواة كـ محمد بن عبد الله بن آدم بن جشم وشعيب
بن صخر .

ونعرف منهم سودة الذي مات بالشام زمن الوليد ، وكان
جرير به معجباً فجزع عليه ورثاه أشجى الرثاء وأحزنه .

ونعرف منهم عكرمة بن جرير ، وقد رويت عنه أحكام
أدبية سمعها من أبيه ، أو سأل أباه عنها ، وكان شاعراً يلاحى
الناس ، ويهاجي الشعراء ، كأخيه نوح بن جرير .

ومنها حجناء بن جرير ، وقد كان في أسئلته الأدبية شبه
عكرمة ونوح .

وفي بعض النصوص أن حجناء بن نوح بن جرير كان يحدث عن جرير ، فربما كان حجناء لبس ابناً لشاعرنا ، وإنما كان حفيده ، أو لعل هناك رجلين بهذا الاسم أحدهما ابن جرير والثاني حفيده .

وفي بعض النصوص أيضاً أن عمارة هو ابن بلال بن جرير ، وهو الذي يرجع إليه الفضل في رواية شعر جده .

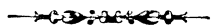
ولم يقع إلينا نص واضح فيمن بقي ، وإن كنا قد عثرنا على أسماء نشك كثيراً أن تكون صحيحة النسب إليه وإذا لم يطمئن القلب فلا داعي لتقريرها على أننا نعرف يقيناً إحدى ابنتيه (الربداء) فقد تزوجت من ابن عمها كسيب بن عمران ابن عطاء بن الحطفي فأنجبت مسحل بن كسيب . ولقد حدث عن جده جرير .

وأما زوجته أم بنيه فهي خالدة بنت سعد وكان بها معجباً ولها محباً ، ولقد ماتت في حياته فجزع عليها أشد الجزع ورثاها بما ينبي عن لوعة وحرقة كما التاع لفقده ابنة سواده .

وأما أمه فكانت أم قيس حقة بنت معيد كما مر ، وروى صاحب الأغاني أنها أم قيس بنت سعد من يربوع .

وأما جدته أم عطية فكانت النوار بنت يزيد من يربوع أيضاً .

وهذا ما حققناه من أسرة جرير وقد لاحظت مما مر بك أثناء الحديث عن أبنائه وأحفاده أن منهم من كان يمد في الأدباء والشعراء ، ويعنى بالحوادث الأدبية التي تنصل بجرير ، وكانوا جميعاً يتحدثون عن أخباره الواقعية والفنية ، ومن هنا نعلم اتصالهم بالحياة الأدبية العامة وشيوع الفكرة الأدبية فيهم ، فلم يكن أفراد هذه الأسرة ليقصروا على تحديث كبار الرواة بأخبار جدهم ، وإنما كانوا ينظرون إلى الوجهة الفنية الشعرية فيسألون أباهم ثم هم يخبرون الناس بما كانوا يعلمون ، وإذا ضمت إلى هذا ما تحدث به الأصمعي وغيره من الرواة عنهم احتجت إلى صحائف تتجاوز المئين عدداً .



فساد بيته

أما فساد بيته التي درج منها فلا تقف عند الحد الذي أشرنا إليه حين ذكرنا لك ما كان بينه وبين أخويه بل أن ذلك الفساد يتجاوز الأبناء إلى الآباء ، ومن شر ما في الخلق أن يتخطى المرء حدود قدسية الأب ؛ ولقد كان جرير في أول عهده من أعق الناس بأبيه ، ولعل عقوقه كان لما رأى عليه أباه من الضعة والبخل حتى أصبح يعير به وكان يهزأ منه ويسخر ، فخرج ابنه بلال من أعق الناس بأبيه :

استعار جرير من أبيه فحلاً يطرقه في إبله فلما استغنى عنه جاءه أبوه في بَتٍ خَلَقَ يسترده ، فدفعه إليه وقال : يا أبتِ هذا ترد إلى عطية تعتل !

يعرض بقول الفرزدق فيه :

ليس الكرام بنا حليك أباهمُ حتى ترد إلى عطية تعتل
وراجع جريرُ ابنه بلالاً الكلام يوماً فقال له بلال :
« الكاذب مني ومنك ٠٠٠ أمه »

فأقبلت أم بلال على ابنها وقالت له : يا عدو الله أُنقول
هذا لأبيك فقال جرير : دعيه . . . فوالله لكأنني أسمعها مني
وأنا أقولها لأبي .

ولكن جريراً لم يبق على عقوبه حينما تقدمت به الأيام بل
عرف لأبيه حقه حتى عجب أبو عمرو بن العلاء من انحطاط
جرير لرجل دميم أسود وإجلاله له ، ثم زال عجبه حين عرف
أن عطية أبوه .

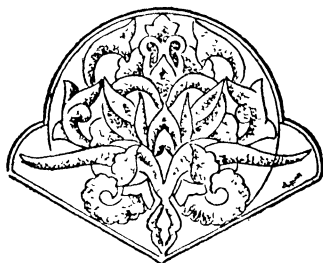
في هذه البيئة نشأ جرير ، وفي قرية «حجر» من قرى اليمامة
بالجنوب الشرقي من نجد^(١) ، ترعرع وكبر ، وبين أهل فقراء
يقولون الشعر ، ويهاجون به شعراء قومهم ، ثقف الكلام وتعلم ،
وكان شأن أطفال البادية ، يغدو بغنات أبيه إلى المرعى ويروح ،
وربما ذهب بماله وإبله التي كان يجود عليه بها جده الخطفي .

ولكن بطيئاً ما ولدت للخطفي صبية فرجع بما أعطى ، فعاتبه
جرير ليست أول ما قال كما زعم الزاعمون .

أما أول قول له يُعتدُّ به فكان رجزاً ، قاله في غسان السُّليطي

(١) قيل إنها الرياض عاصمة نجد الآن

من أبناء عمومته ، سمعه يهجو قومه ، والناس من حوله عنق واحد ،
 فهاجت نفس جرير برجز فيه فخش كثير .
 وشاع في قومه الطرب اعتزازاً به ، وشرع يذود عن قومه ،
 ويدفع غسان حتى ظهر أمره ، وسار شعره كل مسير .
 ومن هذه الشرارة الصغرى توقدت نيران التهاجي بينه وبين
 الشعراء ، وزاد في هذه النيران أن الأمراء والملوك كانوا يعملون
 على إيقادها ، تفريقاً للكلمة ، وتأيداً للملك ، واصطناعاً للشعراء
 كما سترى .



الخصومة الكبرى

وتهافت الشعراء على جرير تهافت الفراش على النار ، كل يعين صاحبه فيهوي معه ، ويكون شأنه شأن المتهلق بالغريق فيغرقان معاً .
وكان فيهم من يجب أن يتعلق بأسباب جرير طمعاً في الخلود بذكراه ، وفي الشهرة عن طريقه ، كعمر بن لُجأ .
وكان فيهم من أغري وحُرِّض على الهجاء كسراقه بن مرداس الباري ، حملة بشر بن مروان على هجاء جرير لالشيء ، إلا لينعم بتهاجيها ، كمن يوقد النار ليرى كيف تلتهم المنازل فيلذه المشهد .
وطفا من كل أولئك الغرقى شاعران كبيران هما الفرزدق والأخطل ؛ فأما الفرزدق فقد أعان البعيث الذي أعان غسان السليطي ؛ وكان البعيث من بني مجاشع ، وهم قوم الفرزدق من تميم ، وقد ظهر عليه جرير وسب المحصنات من آل مجاشع ، ففزعن إلى الفرزدق يلمنه على تعبيد نفسه بالقيد ، واشغاله بحفظ القرآن دون الدفاع عن المحارم .

وثار الفرزدق ، فأرسل في جرير أولى أهاجيه ، وامتدت النقائض بين الرجلين ، وتحول جرير عن البعيث المنهزم ؛ إلى

الفردق المقدم ، وبقيا كذلك ردحا من الزمن ، والفردق
أسير شعراً ، يتناقل أهل البصرة عنه شعره ، فيكثر الرواة والعلماء
من حوله ، وأما جرير ففي اليامة مقيم .

ثم قدم البصرة ، وقد غبر على المهاجرة عشر سنين ، فرأى
الناس من يربوع يتطلعون إليه ، وهم الذين استقدموه ، فأقام
في المربد سبع سنين ، أو أكثر ، لا هم له إلا أن يسب من سب
قومه ، وإلا أن يشتم من شتمهم .

وفي هذه المدة اتصل بالأمرء كبشر بن مروان والحجاج ثم
اتصل بالخلفاء بعد حين .

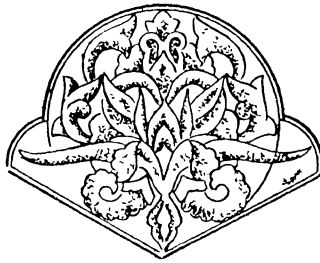
وأما الأخطل فقد كان يتنور هذه النار ، وهو في الجزيرة
وما بين النهرين ، ولذا له أن يعلم من أمر جرير والفردق ما يفضل
أحدهما على الآخر ، فبعث ابنه مالكا ليحيثه بالخبر اليقين .

وكان من حكم الأخطل تفضيل جرير على الفردق إذ قال :
جرير يغرف من بحر والفردق ينحت من صخر . إلا أن محمد
ابن عمير بن عطار رشاه زقاق خمر وكساه حلة ، ففضل في شعر
له الفردق على صاحبه .

فاستعر بينهما الجدال ، وكان الأخطل في غنية عن هذا
لأنه قد أسن وشاخ .

وبلغ الشائرون على جرير ثمانين من شعراء الزمان ، فأخلمهم
واحدًا واحدًا .

وظل جرير والفرزدق والأخطل يتصاولون أمدًا طويلًا .



ضربة في الأرض

ضاعت آفاق البادية بجريير مذ كان شاباً ، وقديماً كانت
تضييق الآفاق المحدودة بالعاقرة ، ورأى هو وقومه ، أن بقاءه
في اليامة لن يوصله إلى ما يجب من شهرة ومال ، وأكثر ما
يكلف الشاعر فبهذين الأمرين .

وإنه لمن العسر أن تحدد الأوقات التي كان الشاعر يغادر
فيها موطنه ليفد على الأمراء والخلفاء ، وإنه لعسر جداً أن
تساير حياة الشاعر ، والكتب التي بين أيدينا على ما فيها من
غنى ، قاصرة عن تأدية كل ما تريد لما فيها من تداخل وتفكك ،
وتقديم وتأخير ، وتزيد ونقص ، كل ذلك في غير موضعه ، وما
على الباحث إلا أن ينسق هذه الأخبار تنسيقاً تقريبياً .

وأنت إذا شئت أن تحقق وفادات الشاعر بدأت بوفادته
وهو شاب على يزيد بن معاوية .

ولم يكن له حينئذ من الشهرة ما استطار له فيما بعد ، وقد استوذن
له على يزيد . في جملة الشعراء ، فخرج الحاجب ، وهو ينكره ،

يقول : إن أمير المؤمنين لا يأذن لشاعر لا يعرفه ، ولا يسمع
بشعره ، وما سمع لك بشيء فيأذن لك على بصيرة .

فقال جرير قل لأمير المؤمنين أنا الناقئل :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى سريع إذا لم أرض داري انتقاليا
جرى الجنان لا أهاب من الردى إذا ماجعلت السيف قبض بنانيا
وليس لسيفي في العظام بقية وللسيف أشوى وقعة من لسانيا
وكانت هذه الأبيات من أوائل شعره وقد قالها لجدّه وهي ليست
أول ما قال - كما زعم بعض من أرخوا له - .

ودخل الحاجب بها إلى يزيد .

وكان يزيد قد عاتب أباه بهذه الأبيات وسواها من هذه
لقصيدة وأرسلها إلى معاوية ، وكان معاوية يظن أنها لابنه
لأنها لم تكن ذائعة كثيراً .

فلما سمع يزيد هذه الأبيات من الحاجب ، أذن لجرير
أدخله واستنشدّه ، وأخذ جرير أول جائزة من الخلفاء وقال له يزيد :
نمد فارق أبي الدنيا وما يظن أبياتك التي توسلت بها إليّ ، إلالي .

وكان ذلك على القريب سنة ثلاث وستين للهجرة^(١) وكان
عمر جرير نحو ثلاث وثلاثين سنة .

وثارت الفتنة بين آل مروان وآل الزبير .

فلما كان عهد عبد الملك سنة خمس وستين وفد جرير على
الحجاج بالعراق ، ووفد على بشر بن مروان وكان قد استفحل
أمره ، وطار صيته بين المشرق والمغرب .

ونحب أن نقرر أن وفادته على الحجاج كانت قبل وفادته
على ملوك بني مروان ، ومن هنا تجد النحلة ظاهرة في الحديث الطويل
الذي أورده صاحب الأغاني عما جرى بين الحجاج وجرير^(٢) إذ
أخذ هذا يذكر له الشعراء الذين هاجروه واحداً واحداً ، وفيهم

(١) لأن يزيد توفي سنة أربع وستين للهجرة بعد أن حكم ثلاث
سنتين وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوماً ، وقد توسطنا الأمر فجعلنا مقدم
جرير عليه في تلك السنة لأننا لم نعثر على مقدم آخر له على يزيد ، وكان
الشاعر على الأغلب يفد في كل عام على الخليفة مرة وجعلنا ولادة جرير سنة ٣٠

(٢) قيل إن جريراً قدم مادحاً على الحكم بن أيوب وهو خليفة للحجاج
فاستنطقه فأعجبه ظرفه وشعره فكتب إلى الحجاج أنه قدم علي أعرابي
شيطان من الشياطين ، فكتب إليه أن ابعث به إليّ ، ففعل فقدم عليه
فأكرمه الحجاج وكساه جبة وأنزله فمكث أياماً ، ثم أرسل إليه بعد نومه فقالوا

من لم يتصل الهجاء بينه وبين جرير إلا في الزمن المتأخر كعمر
ابن لجأ وعلفة والسرندي .

وفيه من كان سبب التهاجي بينهما متصلاً بأحد الخلفاء
كجفنة الهزاني الذي طلب من جرير حلة منحه إياها الوليد بن
عبد الملك ، فلما أبى ، هجاه جفنة وشمته .

ويؤيد النحلة في هذا الحديث أن الحكم بن أيوب الذي وفد
عليه جرير كتب إلى الحجاج أنه قدم عليّ أعرابي شيطان من
الشياطين فاستقدمه الحجاج ، فلما دخل عليه قال له يا عدو الله
علام تشتم الناس وتظلمهم ؟

أجب الأمير فقال : ألبس ثيابي ؟ فقالوا لا والله لقد أمرنا أن نأتيه بك
على الحالة التي نبجك عليها !! .

قالوا فزع جرير وعليه قميص غليظ وملاء صفراء ، فلما رأى ما به رجل
من الرسل دنا منه وقال لا بأس عليك إنما دعاك للحديث .

فلما دخل عليه قال الحجاج إبه يا عدو الله علام تشتم الناس وتظلمهم
فقال جعلني الله فداء الأمير والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلمونني فأنتصر ،
وأخذ يحدّثه عن الشعراء الذين هاجموا ويظهر أنه معهم مظلوم منتصر
ذائد عن كرامته وكرامة قومه ، مجيب على أهاجيمهم بنقائض لها .

وطلع الصباح فنفض الحجاج ونفض جرير وقال الحجاج لمن حضر
قاتله الله أعرابياً إنه لجرو هراش (انظر الأغاني ج ٧ ص ٤٠ طبعة ساسي) .

فالقصة ليس فيها تساقق ولا اضطراب معقول فإن كان الحجاج يعرفه من قبل ، فلا حاجة لأن يكتب الحكم بن أيوب إليه بصفة جرير ، وإن لم يكن معروفاً لدى الحجاج فأتى له أن يعلم ما كان من شأنه مع الناس ، ويتضح من هذا أن الحديث موضوع ، ونرجح بعد ، أن الحجاج كان يعرف من أمر جرير أكثر مما ذكر صاحب الأذاني لأن شهرته كانت قد سبقته إلى العراق ، وهو ما يزال في الذاكرة .

وإنما أوردنا لك هذه المناقشة لتعلم أن كثيراً مما في كتب الأدب لم يكن غير أحاديث يتناقلها الناس ، دون روية ولا تدقيق ، فيدونها المدونون ، ويحسنون حين يتصلون من تبعة صدقها ، وينسبونها لرواتها ، وكثير من الأحكام الأدبية والأحاديث يتناقلها الناس عن مجالس الأدباء ، ولكنهم لا يحاولون أن يدققوا فيها كثيراً . وربما كان لذلك الحديث الطويل الذي يبرئ فيه جرير نفسه أمام الحجاج ، ويذكر أن الشعراء هم الذين أثاروه ، ربما كان له أصل في بعض مجالس الحجاج التي حضرها جرير ، فذكر بعضاً من الشعراء الذين هاجوه ثم زاد الناس في الحديث ما لم يكن فيه .

وأما أول مقدم لجريير على الحجاج فكان بواسطة إذ نزل على عنبسة بن سعيد ولم يكن يدخل واسط أحد إلا بإذن الحجاج لأنها مدينته ، فلما دخل جريير على عنبسة قال له ويحك لقد غررت بنفسك فما حملك على ما فعلت ؟ قال شعر اعتلج في صدري وأحببت أن يسمعه الأمير .

فعنفه وأدخله بيتاً في جانب داره ، وقال ، لا تطلعن رأسك حتى ننظر كيف تكون الحيلة لك ، فأتى عنبسة رسول الحجاج يدعوّه في يوم قائط ، وهو قاعد بالخضراء ، وقد صب فيها الماء ليتبرد . وكان الحجاج قاعداً على سرير ، وكرسى موضوع ناحية ، فجاء عنبسة فجلس على الكرسي وأقبل عليه الحجاج يحادثه ، فلما رأى عنبسة انطلاق الحجاج قال له : أصالح الله الأمير ، رجل من شعراء العرب قال فيك شعراً أجاد فيه فاستخفه عجبه به حتى دعاه إلى أن رحل إليك ودخل مدينتك من غير أن يستأذن له ، قال : ومن هو ؟ قال : ابن الخطفي ، وكان الحجاج عارفاً به ، أو سامعاً باسمه ، فلم يسأل عنبسة عن صفته وإنما قال له وأين هو ؟ قال عنبسة : في المنزل ، فنادى الحجاج يا غلام ، فأقبل الغلمان يتسارعون ، قال : صف لهم موضعه من دارك ، فوصف لهم فانطلقوا حتى جاؤوا به ، فأدخل عليه وهو

مأخوذ بضبعيه حتى رمي به في الخضراء فوقع على وجهه في الما
ثم قام يتنفس كما يتنفس الفرخ .

فقال له هيه ؟ ما أقدمك علينا بغير اذننا لا أمّ لك ، - ولم يقل
له من أنت ولا ما هو نسبك ، لعلمه به -
قال جرير : أصلح الله الأمير ، قلت في الأمير شعراً لم يقل
مثله أحد فجاش به صدري ، وأحبيت أن يسمعه الأمير مني
فأقبلت به إليه .

فتطلق الحجاج وسكن واستنشده ، فأنشده ، ثم قال يا غلام ،
فجاء الغلمان يسعون فقال : عليّ بالجارية التي بعث بها إلينا عامل
اليامة ، فأتي بجارية بيضاء مديدة القامة ، فقال إن أصبت
صفتها فهي لك فقال ما اسمها ، قال أمامة فأنشأ يقول :

ودّع أمامة حان منك رحيل إن الوداع لمن تحب قليل
مثل الكثيب تهيلت أعطافه فالريح تجبر منته وتهيل
تلك القلوب صوادياً تيمتها وأرى الشفاء وما إليه سبيل
قال خذ بيدها ، فبكت الجارية وانتحبت ، فقال ادفعوها إليه
بمساءها ونعلها ورحالها .

هذا ما نرجحه من أمر اتصال جرير بالحجاج ثم كان بينهما مجالس تبسط فيها جرير وزاد الناس عليها .

ولم تكن وفادته على الحجاج خالية من تحريض على الشر ، يثيره الحجاج بين جرير وخصومه ، وإنك لتقول هذا ، وأكثر منه عمن اتصل بهم جرير أمراء كانوا أم ملوكاً .

وإنك لترى هذه المسارب الضيقة والطرق الخفية التي كان يسلكها هؤلاء الأمراء والملوك لإثارة العصبية بين القبائل ، ولينعم بنو أمية بالملك ، فلا يجتمع العرب إلا على رئاستهم ، من ذلك أن الحجاج قال للفرزدق وجرير وهو في قصره بمجرى البصرة ، ايتياني في لباس آبائكما في الجاهلية فلبس الفرزدق الديباج والحز وقعد في قبة .

وشاور جرير دهاة بني يربوع فقالوا ما لباس آبائنا إلا الحديد فلبس جرير درعاً وتقلد سيفاً وأخذ رمحاً وركب فرساً لعباد بن الحصين يقال له النجاز وأقبل في أربعين فارساً من بني يربوع . وجاء الفرزدق في هيئته فقال جرير :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج وخلاخله
اعدوا مع الحز الملاء فإنما جرير لكم بعل وأنتم حلائله

ثم رجعا فوقف جرير في مقبرة بني حصين ، ووقف الفرزدق
في المربد .

وإنك لترى في هذه القصة كيف يثير الحجاج العصبية
بالآباء والأجداد ، وكيف يوجد موضوعاً للتهاجي فيما كان
يلبس الآباء والأجداد .

وأقبح من هذا العمل تحريض بشر بن مروان الشعراء بعضهم
على بعض ، فقد حمل سراقه ابن مرداس البارقي على هجاء جرير
واكرهه على ذلك ، لا لشيء ، إلا لينعم بهما وليضحك من الاثنين ،
وليثير العصبية ، وليكثر من تفريق الكلمة .

ولم يقتصر على هذا بل بعث إلى جرير رسولا يأمره أن
يجيب سراقه ، فاستعر التهاجي بين الرجلين .
قال سراقه :

إن الفرزدق برزت أعراقه سبقاً وغودر في الغبار جرير
ما كنت أول محر قعدت به مسعاته أن اللثام عثور
هذا قضاء البارقي وإنه بالميل في ميزانكم لبصير
فقال جرير :

يا بشر حق لوجهك التبشير هلا غضبت لنا وأنت أمير

بشر أبو مروان إن عاسرته عسر وعند يساره ميسور
إن الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللثيمة للثام نصور
قد كان حقتك أن تقول لبارق يا آل بارق فيم سب جرير
وذكر أبو الفرج لهذه الأبيات خبراً آخر قال :

بذل محمد بن عمر بن عطار بن حاسب بن زرادة أربعة
آلاف درهم وفرساً لمن فضل من الشعراء الفرزدق على جرير ،
فلم يقدم عليه أحد منهم ، إلا سراقة البارقي فإنه قال يفضل
الفرزدق على جرير :

أبلغ تميماً غمها وسمينها والحكم يقصد مرة ويحور
إن الفرزدق برزت أعراقه سبقاً وخلف في الغبار جرير
ذهب الفرزدق بالفضائل والعلی وابن المراء^(١) مخلف محصور
هذا قضاء البارقي وإنني بالليل في ميزانهم لبصير
فنسخ بشر بن مروان القصيدة وأرسلها مع رسوله إلى
جرير يأمره أن يجيب عليها ، وألا يبرح الرسول حتى يرجع بالجواب ،
فقال جرير :

يا صاحبي هل الصباح منير أم هل للوم عواذل تقتير

(١) ابن المراء وابن المراءة (ابن الحمارة) لقب لجرير هجاه به الأخطل .

وفيهما يخاطب بشراً ويقول :

قد كان حقك أن تقول لبارق يا آل بارق فيم سب جرير
يعطي النساء مهورهن كرامة ونساء بارق ما لهن مهور
فأخذها الرسول ومضى بها إلى بشر فقرئت بالعراق وأُفجم
سراقة فلم ينطق بعدها بشيء من مناقضته .

وقالوا اجتمع جرير والفرزدق عند بشر بن مروان فقال
لها بشر : إنكما قد تقارضتما الأشعار ، وتطالبتما الآثار ، وتقاولتما
الفخر وتهاجيتما ، فأما الهجاء فليست بي إليه حاجة فجدا بين يدي
فخرا ودعاني مما مضى .

فقال الفرزدق :

نحن السنام والمناسم غيرنا فمن ذا يساوي بالسنام المناسما
فقال جرير :

على موضع الأستاذ أنتم زعمتم وكل سنام تابع للغلام
فقال الفرزدق :

على محرض للفرث أنتم زعمتم ألا إن فوق الغلصات الجماجما
فقال جرير :

وَأَبْأَنُمُونَا أَنْكُمْ هَامَ قَوْمُكُمْ وَلَا هَامَ إِلَّا تَابِعَ لِلْخِرَاطِمِ

فقال الفرزدق :

فنحن الزمام القائد المقتدى به من الناس مازلنا ولسنا لهازما

فقال جرير :

فنحن بني زيد قطعنا زمامها فتاهت كسار طائش الرأس عارم

فقال بشر غلبته ياجرير بقطعك الزمام وذهابك بالناقة ، وأحسن

الجائزة لهما وفضل جريراً .

فأنت ترى في هذا لونا من العبث بالشعراء ، وشيئا أبشع

منه وهو تفريق الكلمة ، وغرس العداوة في القلوب ، حتى امتلأت

حقداً فكان الشاعر يجهد جهده لينال من المحصنات ، وما إلى ذلك

مما تأنفه مكارم الأخلاق ، إرضاءً لحقده ، وإطفاءً لجمرة غضبه ،

فاذا أصاب الظفر لم يعطف ، وإن خاب دس وأثار الشر ،

وكان جرير يقول إنهم يبدؤوني ... ثم لا أعفو ...



في حمى الخيلانة

انصال مبربر عبد الملك

تطلع جرير وهو في العراق إلى أفق أسمى من الأفق الذي
كان يعيش فيه ، واثرب إلى رجل أعظم من كان يعيش في
كنفه ، وكيف لا يطمح ، وهو شاعر متوقد ، عظيم الأطماع ،
كبير الآمال ، وقديماً كان الشعراء متطاعين إلى خير مما هم
فيه ، وقديماً هاجر الشعراء إلى العواصم ، لأن السوق أروج ،
ومن عرف السوق ورواجها ، قصدها ، ونعم بخيراتها .

وكذلك كان شأن جرير ، عرف تهالك الشعراء على أبواب عبد
الملك ، وعلم من أمر الأخطل وغير الأخطل ما هاج فيه الرغبة بمديح
عبد الملك ، عسى أن يغدق عليه ما كان يغدقه على الشعراء ، فيصبح
من أبواق الأمويين الصارخة .

ولكن عبد الملك لا يقرب منه شاعراً إلا بعد أن يثق من ميله
إلى الملك الأموي ، فلم يكن يرضى ، أو لم يكن يتظاهر

بالرضى عنم كانوا يدعون بدعوة آل الزبير ، أو يتظاهرون بالحياد .
ووجد جرير أن الوسيلة إلى عبد الملك حاضرة ، فاتخذ الحجاج
مطية إلى عبد الملك ، ولعل الحجاج اتخذ جريراً مطية له ،
ليُرْضي عبدَ الملك بشاعر فحل يضمه إلى حى الخلافة .
فأوفد الحجاج ابنه محمداً إلى عبد الملك ، وأوفد إليه جريراً
معه ، ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه
ومعاونته عليه .

فلما وردوا استأذن له محمد ، على عبد الملك ، فلم يأذن له ،
وكان عبد الملك لا يسمع من شعراء مضر ولا يأذن لهم لأنهم
كانوا زبيرة على ظنه .

فلما استأذن له محمد ولم يأذن عبد الملك ، أعلمه أن أباه
الحجاج يسأله في أمره ويقول : إنه لم يكن ممن والى ابن الزبير ،
ولا نصره بيده ولا بلسانه .

وقال له محمد « يا أمير المؤمنين ! إن العرب تتحدث أن عبدك
وسيفك الحجاج شفع في شاعر قد لاذ به وجعله وسيلة ثم رددته .
فأذن له فدخل فاستأذن في الإنشاد فقال له : وما عساك أن تقول

فينا بعد قولك في الحجاج ... أَلست القائل :
من سَدَّ مُطَلَّع النفاق عليكمُ أو من يصول كصوله الحجاج
إِنَّ الله لم ينصرني بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته ...
أولست القائل :

أَوْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيزَةً إِذْ لَا يَثْقَنُ بَغِيرَةَ الْأَزْوَاجِ
يَاعَاضُ كَذَا وَكَذَا مِنْ أُمِّهِ ، وَاللَّهُ لَهَمَّتْ أَنْ أَطِيرَ بِكَ
طَيْرَةً بَطِيئًا سَقُوطَهَا ... أَخْرَجَ عَنِّي . فَأَخْرَجَ بِشَرِّ .

فلما كان بعد ثلاث شفع محمد لجبريل وقال يا أمير المؤمنين
إني أديت رسالة عبدك الحجاج وشفاعته في جبريل ، فلما أذنت
له خاطبته بما أطار لبه منه وأُشْمِتَ به عدوه ، ولو لم تأذن
له لكان خيراً له مما سمع ، فإن رأيت أن تهب كل ذنب له
لعبدك الحجاج ولي فافعل ، فأذن له ، فاستأذنه في الإنشاد فقال
لا تنشدني إلا في الحجاج ، فإنما أنت للحجاج خاصة ، فسأله أن
ينشده مديحه فيه ، فأبى ، وأقسم ألا ينشده إلا من قوله في الحجاج
فأنشده وخرج بغير جائزة .

فلما أذف الرحيل قال جرير لمحمد : إن رحلت عن أمير المؤمنين ولم يسمع مني ، ولم آخذ له جائزة ، سقطت آخر الدهر ، ولست بارحاً بابه أو يأذن لي في الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الأذن له فقال جرير لمحمد : ارحل أنت وأقيم أنا .

فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بقول جرير ، واستأذنه له وسأله أن يسمع منه وقبل يده ورجله ، فلان قلب عبد الملك ، وعلم أن هذا المنع كافٍ ليكون درساً بليغاً لجرير ولغيره من الشعراء ، فأذن له فدخل ، فاستأذن في الإنشاد ، فأمسك عبد الملك ، فقال له محمد : انشد ، ويحك ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطوناً راح
فتبسم عبد الملك ، وقال : كذلك نحن ومازلنا كذلك . ثم عرض جرير بابن الزبير فقال :

دعوت الملحمين أبا خبيب جماحاً هل شُفيتَ من الجماح
وقد وجدوا الخليفة هبرزياً أليف العيص ليس من النواحي
ولما أتى على ذكر زوجته فقال :

تعزت أم حذرة ثم قالت رأيت الموردين ذوي لقاح
تُعِلُّ ، وهي ساغبة ، بنيتها بأنفاس من الشبم القراح

قال له عبد الملك : هل ترونها مائة لقحة فقال : إن لم يروها
ذلك فلا أروها الله فهل إليها - جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين -
من سبيل ، فأمر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء .
وكانت بين يدي عبد الملك جامات من ذهب ، فقال له
جرير : يا أمير المؤمنين تأمر لي بواحدة منهن تكون محلباً ، فضحك
ودحس إليه واحدة منهن بالقضيب ، وقال خذها لا نفعتك ، فأخذها
وقال بلى والله يا أمير المؤمنين ، لينفعني كل ما منحتني ، وخرج
من عنده .

وسيمر بك أن جريراً ذكر هذا العطاء في شعره الذي
يمدح به يزيد بن عبد الملك فقال :
أعطوا هنيئة^(١) يحدها ثمانية ما في عطائهم من ولا سرف
وقد رأيت من هذه الوفاة عصبية عبد الملك ، ولا عجب
أن يغضب عبد الملك على الشعراء الزبيريين إذا كان ينفس على أمرائه
أن يختصوا بالشعراء دونه ، وكذلك كان بنو أمية ، يريدون أن يتوحد
كلمة العرب على الخليفة وحده ، وقد يسمون أمراءهم الذلة والهوان ،
إن استعلوا في الأرض وكان لهم من الصولة مثل ما للخليفة .

(١) الهنيئة اسم علم على المائة

خذ مثلاً لذلك الحجاج الذي طغى وتجبر ، كيف استقدمه عبد الملك ماشياً في ركاب زوج له . هذه دخيلة ملوك بني أمية ، وإنها في السياسة لشيء عظيم .

كانت وفادة جرير الأولى على عبد الملك حوالى سنة ٧٠ هـ على وجه التقريب^(١) . وإلى هذه السنة - على مانرجح - لم يكن جرير قد اتصل بالأخطل اتصالاً شخصياً ، ولا عرفه ، إنما كان هناك اتصال بالهجاء ، فقد كانا يتها جيان على غير معرفة ببعضهما ، ولعل الأخطل كان قد عرف جريراً حين وفد على عبد الملك لأول مرة ، ولكن المحقق أن جريراً لم يعرف الأخطل في هذه الوفاة الأولى وإنما عرفه في وفادة أخرى^(٢)

(١) بوبع عبد الملك بالخلافة سنة ٦٥ للهجرة

(٢) قيل إن جريراً خرج الى الشام متلماً فنزل منزلاً ببني تغلب فرآه رجل هو (الأخطل) قال ممن أنت قال من بني تميم قال أما سمعت ماقلت لغاوي بني تميم وانشده مما قال في جرير فقال جرير أما سمعت ما قال لك غاوي بني تميم وانشده ثم عاد الأخطل وعاد جرير إلى نقضه ، فقال التغابي من أنت لحيائك الله والله لكأنك جرير قال فأنا جرير ، قال التغابي وأنا الأخطل . وهذه قصة رواها ابن سلام عن شيخه من ضبيعة والسند ضعيف فيها والوضع ظاهر .

فقد قيل : « إن جريراً وقف على باب عبد الملك ، والأخطل داخل عنده ، وكانا قد تهاجيا ولم ير أحدهما صاحبه فلما استأذنا عليه لجرير أذن له فدخل فسلم ثم جلس .

وقد عرفه الأخطل ، وطمح بصر جرير إليه - ولعل ذلك لمقام الأخطل من عبد الملك - ورأى أن الأخطل ينظر إليه شديداً فقال له جرير من أنت قال أنا الذي منعت نومك ، وتهضمت قومك ، فقال جرير ذلك أشقى لك كائناً من كنت ؛ ثم أقبل على عبد الملك فقال : من هذا يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك ، فضحك ثم قال هذا الأخطل يا أبا حزره .

فرد جرير عليه بصره ، وقال : فلا حياك الله يا ابن النصرانية . أما منعك نومي ؟! فلو نمت عنك لكان خيراً لك ، وأما تهضمت قومي ، فكيف تهضمهم وأنت ممن ضربت عليه الذلة وباء بغضب من الله ، وأدى الجزية عنيد وهو صاغر ، وكيف تهضم - لا أم لك - قوماً فيهم النبوة والخلافة وأنت لهم عبد مأمور ومحكوم عليه لاحاكم ، ثم أقبل على عبد الملك فقال أتاذن لي يا أمير المؤمنين في ابن النصرانية فقال عبد الملك لا يجوز أن يكون ذلك بحضرتي .

فوثب جرير مغضباً فقال عبد الملك : قم يا أخطل واتبع صاحبك ،
 فإنما كان غضباً علينا فيك ، فنهض الأخطل فقال عبد الملك
 لخدم له : انظر ما يصنعان إذا برز له الأخطل ، فخرج جرير فدعا
 بغيلام له فقدم إليه حصاناً أدهم فركبه وهدر والفرس يهتز من تحته .
 وخرج الأخطل فلاذ باباب وتوارى خلفه ، ولم يزل واقفاً حتى
 مضى جرير فدخل الخادم إلى عبد الملك فأخبره فضحك وقال « قاتل
 الله جريراً ما أخفه ، أما والله لو كان النصراني برز إليه لأكله . »
 ومن وفادات جرير على عبد الملك قصة طريفة اعتقد أن
 لحيال الرواة نصيباً فيها ، وهي ترمي إلى تقرير شاعرية جرير
 وتفضيله على سواه .

قالوا : « صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب
 ودعا إليه الناس فأكلوا فقال بعضهم : ما أطيب هذا الطعام ، ما نرى
 أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه . فقال أعرابي
 من ناحية القوم : أما أكثر فلا ، وأما أطيب فقد والله أكلت
 أطيب منه . »

فطفقوا يضحكون من قوله ، وأشار إليه عبد الملك فأدنى
 منه فقال ما أنت بحق فيما تقول إلا أن تخبرني بما بين به

صدقك فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينما أنا بهجر ، في ترب أحمر في أقصى حجر ، إذ توفي أبي وترك كلاً وعيلاً ، وكان له نخل فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها ، كأن ثمرها أخفاف الرباع ، لم ير ثمر قط ، أغلظ ولا أصلب ولا أصغر نوى ، ولا أحلى حلاوة منها ، وكانت تطرقها أتان وحشية ، قد ألفتها تأوي الليل تحتها فكانت تثبت رجلها في أصلها ، وترفع يديها ، وتعطو بفمها ، فلا تترك فيها إلا النبذ المتفرق ، فأعظمني ذلك ووقع مني كل موقع ، فانطلقت بقوسي وأسهمي ، وأنا أظن أنني أرجع من ساعتي فكثت يوماً وليلة لا أراها حتى إذا كان السحر أقبلت ، فتهيات لها فرشتها فأصبتها وأجهزت عليها ، ثم عمدت إلى سرتها فأفريتها ثم عمدت إلى حطب جزل ، فجعبته إلى رصف ، وعمدت إلى زندي ففدحت وأضرمت النار في ذلك الحطب ، وألقيت سرتها فيه ، وأدركني نوم السبات فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فانطلقت إليها ، فكشفتها وألقيت ما عليها من قذى أو سواد أو رماد ، ثم قلبت مثل الملائة البيضاء فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجزعة والمنصفة فسمعت لها أطيلاً كتداعي عامر وغطفان ، ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة فأضعها بين التمرتين وأهوي إلى فمي ، فبِم

أَحْلَفَ ؟ أَنِي مَا أَكَلْتُ طَعَامًا مِثْلَهُ قَطْ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : لَقَدْ أَكَلْتُ طَعَامًا طَيِّبًا مِنْ أَنْتَ قَالَ : أَنَا رَجُلٌ جَانِبَتْنِي عِنْعَنَةُ^(١) تَمِيمٍ وَأَسَدٌ ، وَكَسْكَسَةٌ رَبِيعَةٌ ، وَحَوْشِي أَهْلُ الْيَمَنِ ، وَإِنْ كُنْتُ مِنْهُمْ . قَالَ : مَنْ أَيْهِمْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ أَخْوَالِكَ ، بَنِي عَذْرَةَ . قَالَ أُولَئِكَ فَصَحَّاءُ النَّاسِ فَهَلْ لَكَ عِلْمٌ بِالشَّعْرِ ؟ قَالَ سَلْنِي عَمَّا بَدَأَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ أَيُّ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ أَمْدَحُ ، قَالَ قَوْلُ جَرِيرٍ :
أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونُ رَاحٍ
وَكَانَ جَرِيرٌ فِي اقْنُومٍ فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَتَطَاوَلَ .
ثُمَّ قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ فَأَيُّ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ أَنْخَرُ ، قَالَ قَوْلُ جَرِيرٍ :
إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا
فَتَحْرُكُ جَرِيرٌ . قَالَ فَأَيُّ بَيْتٍ أَهْجَى ، قَالَ قَوْلُ جَرِيرٍ :
فَغَضُ الطَّرَفِ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كَلَابَا

(١) عِنْعَنَةُ تَمِيمٍ أَبْدَلَهَا الْعَيْنُ مِنَ الْهَمْزَةِ فَيَقُولُونَ «عَنْ» مَوْضِعَ «إِنْ»
وَالْكَسْكَسَةُ لَتَمِيمٍ وَهِيَ الْخَافَتُهُمْ بِكَافِ الْمَوْنِثِ سَيِّئًا عِنْدَ الْوَقْفِ بِقَالَ :
أَكْرَمَتَكَ = أَكْرَمَتَكَسَ .

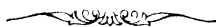
وَالْحَوْشِيُّ : الْغَامِضُ مِنَ الْكَلَامِ .

وَمِنْهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَسْكَسَةَ لَتَمِيمٍ لَا لَرَبِيعَةٍ .

فاستشرف لها جرير قال فأي بيت أغزل ، قال قول جرير :
إن العيون التي في طرفها مرض^(١) قتلنا ثم لم يحين قتلنا
فاهتز جرير وطرب .

قال فأي بيت قالته العرب أحسن تشبيهاً ، قال قول جرير :
سرى نحوهم ليل كأن نجومه قناديل فيهن الدُّبال المقتل
فوئب جرير وقال جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين ، فقال له
عبد الملك : وله مثلها من بيت المال ولك جائزتك يا جرير
لا تنتقص منها شيئاً . وكانت جائزة جرير أربعة آلاف درهم
وتوابعها من الحملان والكسوة .

وخرج العذري وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم وفي اليسرى
رزمة ثياب^(٢) .



(١) ورد أيضاً (حورٌ) (٢) الأغاني

وفادته على الوليد بن عبد الملك :

ورأى جرير المرعى خصباً عند بني أمية ، وحسنت منزلته لديهم ، فكان يفد على الملوك واحداً بعد آخر ، وما تصرم زمن عبد الملك حتى استقبل زمن الوليد فوفد عليه ولقي كرمًا ، ولم يزل يتناول جائزته التي خصصت له زمن عبد الملك ، من مال وكسوة .

وفي زمن الوليد ثار التهاجي بين جرير وبين جفنة الهزاني ، وذلك أن جفنة جاء جريراً وكان يمدح حوضاً له فقال يا جرير قم إلى ههنا قال نعم ، ثم جاءه وقال ما حاجتك : قال جفنة : مدحتك فاستمع مني قال : أنشدني فأنشده فقال جرير قد والله أحسنت وأجملت فما حاجتك قال تكسوني الحلة التي كساكها الوليد ابن عبد الملك هذا العام .

فقال جرير : إني لم أقف فيها بالموسم ، ولا بد من أن أقف فيها العام - تباهياً بها - ولكني أكسوك حلة خيراً منها كان كسانها الوليد عام أول .

فقال جفنة : ما أقبل غيرها بعينها ، قال : بلى . فاقبل وأزيدك معها دنانير نفقةً ، فقال ما أفعل ومضى ، وأتى المرار بن منقذ وكان

شاعراً أعان الفرزدق على جرير فحمل جفنة على ناقة له يقال
لها القصواء فقال جفنه :

لعمرك للمرار حين لقيته على الشحط خير من جرير وأكرم
فرد عليه جرير بقصيدة منها :

لقد بعثت هزان جفنة مائراً فآب وأجدى قومه شر مغنم
ومن هنا ترى أن التهاجي بينهما لم يتصل بزمان عبد الملك
ولم يكن قبل اتصال جرير بالحجاج ، فإن صح هذا - وهو
الحق - فلا يصح ما قاله الرواة من تحدث جرير بهذا الخبر
للحجاج أول اتصاله به ، وهذا وغيره مما سلف لنا القول فيه ،
يحملنا على الشك بالحديث الطويل الذي قيل إنه جرى لجرير
أول اتصاله بالحجاج .

ثم إن التهاجي بين جرير وبين عدي بن الرقاع - شاعر الوليد
الخاص - استعر زمان الوليد على ما نرجح ، وآية ذلك أننا لم نقف على
ميل عدي لشاعر من الشعراء الذين هاجوا جريراً ، ليكون الدافع
إلى هذا العداء نصرته لأحد ، ونوء كد أن سبب التهاجي بينهما
تقدم عدي بن الرقاع عند الوليد وهو ما أثار نفس جرير عليه
أضف إلى هذا أن جريراً كان مريضاً ، وكان عدي قحطانياً ، وكانت

العداوة محتدمة بين القحطانية والمضرية ، فإذا جمعت كل أولئك
عرفت تنكر جرير لعدي بالعداوة .

قالوا : كان جرير عند الوليد وعدي بن الرقاع ينشده ،
فقال الوليد لجرير : كيف تسمع ، — فلم يجبه عن السؤال قبل
أن يعرف الرجل الذي يفخر به الخليفة — فقال : ومن هو يا أمير
المؤمنين قال : عدي بن الرقاع . . . قال جرير فإن شر الثياب الرقاع .
وسكت قليلاً ، ثم قال : عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية .

فغضب الوليد وقال يابن اللخناء ما بقي لك إلا أن تتناول كتاب
الله . . . والله ليركبئك . . . يا غلام . . . أو كفه حتى يركبه .
وأسرع الغلام ليأتمر . . . فغمزه عمر بن الوليد . . . فأبطأ
بالإكاف ، فلما سكن غضب الوليد قام إليه ابنه عمر فكلمه
وطلب إليه وقال هذا شاعر مضر ولسانها فإن رأى أمير المؤمنين
ألا يغض منه . ولم يزل به حتى أعفاه وقال له والله لئن هجوته
أو عرّضت به لأفعلن بك ولأفعلن فقل جرير في عدي تصيدته
التي يقول فيها :

أقصر فإن نزاراً لن يفأخرها فرع لثيم وأصل غير مغروس

وذكر وقائع نزار في اليمن ، فعُلم أنه عنه ولم يجب
الآخر بشيء .

وشبه بهذا الخبر خبر آخر ولعل أصل الخبرين واحد وإن
تعدد إيرادهما وفي هذا الخبر ترى نفس جرير الوثابة وأغاظته
عدياً من حيث لم يكن هذا يجب .

قالوا : « كان عدي بن الرقاع خاصاً بالوليد مداحاً له فكان
جرير ، يحيي إلى باب الوليد ، فلا يجالس أحداً من النزارية ولا
يجلس إلا إلى رجل من اليمن ، بحيث يقرب من مجلس ابن الرقاع ،
إلى أن يأذن الوليد للناس فيدخل ، فيقال له : يا أبا حزرة ؟ أختصت
عدوك بمجلسك ! فيقول إني والله ما أجلس إليه إلا لأشده أشعاراً
تخزيه وتخزي قومه ، ولم يكن ينشده شيئاً من شعره وإنما كان ينشد
شعر غيره ليدله ويخيفه نفسه .

وأذن الوليد للناس ذات عشية ، فدخلوا فأخذ الناس مجالسهم وتخلف
جرير واطمأنوا فيها ، فبينما هم كذلك إذا بجرير قد مثل بين السماطين
يقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، إن رأى أمير المؤمنين
أن يأذن لي في ابن الرقاع المتفرقة ، أو لف بعضها إلى بعض ،

فقال الوليد والله لمست أن أخرجه على ظهرك إلى الناس فقال
جرير وهو قائم كما هو .

فإن تنهني عنه فسمعاً وطاعة وإلاّ فأني عرضة للمراجع
فقال له الوليد لا كثر الله في الناس أمثالك فقال له جرير :
يا أمير المؤمنين إنما أنا واحد قد سعت الأمة فلو كثر أمثالي
لأكلوا الناس أكلاً .

فتبسم الوليد حتى بدت ثناياه تعجباً من جرير وجلده ثم
أمره فجلس .

كذلك كانت وفادته على الوليد فإذا انصرف عنه وفد على عبد
العزیز بن الوليد أو على سواه .

ومنذ انصل ببني أمية وأمرائهم حسنت حاله وأصبح يتذوق
من الشراب أطيبه ، ويلبس من الملابس أئمنها .

قيل إن جريراً قدم على عبد العزيز بن الوليد وهو نازل بدير
مرّان فكان يعدو عليه جماعة بكوراً فيخرج جرير إليهم ويجلس
في برنس خبز له ، لا يكلم أحداً حتى يأتي طبّاخ عبد العزيز إليه
بقدح من طلاء " مسخن يفور ، وبكتلة من سنن كأنها هامة

(١) الطلاء ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه وقد يكتني به عن الخمر .

رجل ، فيخوضها فيه ثم يدفع القدح إلى جرير فيأتي عليه .
ثم يقبل جرير على الجماعة ، يحدثهم في كل فن ، وينشدهم لنفسه
ولغيره حتى يحضر غداء عبد العزيز ، فينهض إليه الجميع ، وكان جرير
يختم مجلسه بالتسبيح فيطيل ، فقال له رجل : ما يغني عنك هذا
التسبيح مع قذفك للمحسسات . فتبسم وقال يابن أخي خلطوا
عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم إنهم والله
يابن أخي يبدوونني ثم لا أحلم .

وفي آخر عهد الوليد ، فقد جرير الركن الأيد الذي كان
يعتمد عليه في العراق ، وهو الحجاج ، ولكنه استبدل به ركن
الخلافة إذ ثبتت قدمه في البلاط الأموي ، وإن لم يكن ثبوت
قدم الأخطل فيها .



واستقبل جرير عهد سليمان سنة ٩٦ هـ فوجد فيه خيراً كما وجد في عهد سواه ، وكان جرير مقرباً من سليمان ، ولم يفت الخليفة في تقريبه جريراً أو سواه أن يغري بين الشعراء ، كما كان يفعل بشر بن مروان وغيره من الأمراء والخلفاء .

فقد اجتمع الفرزدق وجرير ، وكثير وابن الرقاع عند سليمان ابن عبد الملك فقال : أنشدونا من نخر كم شيئاً حسناً . فبدرهم الفرزدق فافتخر بما أعجب سليمان ، فقال لهم لا تنطقوا فوالله ما ترك لكم مقالاً . وفي هذا ما فيه من إثارة نفوس الشعراء بعضهم على بعض وشبه ذلك . ماجرى حين حج سليمان ومعه الشعراء ومر بالمدينة فأتي بأسرى من الروم ٠٠٠ فدفع إلى جرير أسير ليقتله فدسّ بنو عبس إليه سيفاً قاطعاً فضرب الأسير ضربة أطارت رأسه ، ودفع إلى الفرزدق أسير وأعطاه سليمان سيفاً ليقتله به فقال لا بل أضربه بسيف مجاشع ، واختلط سيفه وضربه به ، فلم يغن شيئاً ، فقال له سليمان ، أما والله لقد نعى عليك عارها وشنارها .

ولعله أغرى جريراً أن يهجوّه ، أو لعل جريراً وجد موضوعاً للهجاء فقال فيه قصيدته :

ألا حيّ ربع المنزل المتقدم وما حل مذ حلت به أمّ سالم
وفيهما :

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ضربت به عند الإمام فأرعشت يدالك ، وقالوا ! محدث غير صارم
واعتذر الفرزدق عن هذه النبوة بقصيدة قال فيها :

ولا تقتل الأسرى ولكن فكّهم إذا أثقل الأُعناق حمل المغارم
وقيل إن الفرزدق استوهب الأسير من سليمان فوهبه له فأعتقه .



وجاء عهد عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ فلم يلق الخير الذي
يرجو ، ذلك أن عمر بن عبد العزيز كان رجلاً لا تغره الفانية ،
ولا يحب سفاسف القول ، وكان يكره هذه المدائح التي تقوم
على النفاق والزلفى .

ولقد قصده جرير فيمن قصده من الشعراء ، ولكن عمر لم يكن
يصل إليه شاعر .

ولزم جرير باب عمر ، ورأى ذات يوم عون بن عبد الله بن
عتبة بن مسعود فصاح به جرير :

يا أيها القارئ المرخي عمامته هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية إني لدى الباب كالمصفود في قرن
فدخل عون على عمر ، فاستأذن له ، فأدخله عليه وكان جرير
قد هياً له شعراً فلما رآه غيره وقال :

إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم تكنتني بالذي بلغت من خبري
ما زلت بعدك في دار تعرفني قد طاب بعدك إصعادي ومنحدري

لا ينفع الحاضر الجهود بادينا ولا يجود لنا بادٍ على حضر
 كم بالمواسم من شعناء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
 يدعوك دعوة ملهوف كأن به خبلاً من الجن أو مساً من البشر
 من يعدك تكفي فقد والده كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر
 فبكى عمر ، ثم قال يا بن الخطفى أمن أبناء المهاجرين أنت
 فنعرف لك حقهم ؟ أم من أبناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم ؟
 أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب صدقات قومك فيصملك
 بمثل ما يصل به قومك ؟ .

فقال فإني ابن سبيل ، قال لك ما لأبناء السبيل : زادك ونفقة
 تبلغك بلدك وتبدل راحتك ، إن لم تحملك ، فألح عليه وطلب
 ما عوده الملقاء وهو أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة
 وحمالان فقال له عمر : كل امرئ يلقى فعله .

وفالت بنو أمية يا أبا حذرة مهلاً عن أمير المؤمنين ونحن
 نرضيك بأموالنا .

فخرج يقول : خرجت من عند رجل يقرب الفقراء ، ويباعد
 الشعراء وأنا مع ذلك راضٍ عنه .

وجعت له بنو أمية مالاً عظيماً ، فما خرج من عند خليفة
بأكثر مما خرج من عند عمر .

وقد قيل : إن عمر قال لجبر : إني لا أرى لك في مال الله
حقاً ، ولكن انتظر يخرج عطائي ، فأنظر ما يكفي عيالي سنة منه
فأدخره لهم ، ثم إن فضل فضل صرفناه لك ، فقال جبر لا بل
يوفر أمير المؤمنين ويحمد ، وأخرج راضياً قال عمر فذلك أحب إليّ .
فخرج فلما ولى قال عمر « إن شر هذا ليتقى ، ردوه إليّ » فردوه .

فقال إن عندي أربعين ديناراً وخلعتين ، إذا غسلت إحداهما لبست
الأخرى ، وأنا مقاسمك في ذلك . على أن الله عز وجل يعلم أن عمر
أحوج إلى ذلك منك ، فقال له : قد وفرك الله يا أمير المؤمنين
وأنا والله راض . قال عمر : « أما وقد حلفت فإن ما وفرت عليّ ولم
تضيّق به معيشتنا ، آثر في نفسي من المدح فامض مصاحباً » . فخرج .

ونحن لا نطمئن إلى هذا القول كل الاطمئنان لأن عمر لم
يكن يدّخر من المال شيئاً فيما نعلم ، بل كان يخرج من ماله
فيرده لبيت المال ، حتى أنه لم يجد عنده ، مرة ، ما يكفيه لنفقة الحج
غير بضعة عشر ديناراً ، وحتى أنه أخذ حلي زوجته فاطمة بنت عبد
الملك بن مروان ، وجعله في الخزانة العامة ، أضف إلى هذا أن

عمر لم يكن ممن يهاب الشعراء فيعيد إليه شاعراً يخاف شره ،
 وأي خوف لخليفة زاهد مقيم لشعائر الإسلام مثل عمر ، وإنه
 لا يسر عليه أن يمنع الشاعر من أن يعذبه على مرأى ومسمع من الناس .
 فإن عمر حينما كان والياً على المدينة للوليد بن عبد الملك أمر
 أن يقرن جرير وعمر بن لجأ وأن يوقفا للناس بالسوق لما تهاجيا .
 وكان عمر بن لجأ شاباً كأنه حصان ، وكان جرير شيخاً
 قد أسن وضعف ، فكان ابن لجأ يقول :

رأوا قرأً بساحتهم منيراً وكيف يقارن القمر الحمارا
 وكان ينزو به وهما مقرونان في جبل ، فيقع ابن لجأ قائماً ، ويسقط
 جرير إلى الأرض ، ويخر لركبتيه ووجهه ، فإذا قام نفث الغبار
 عنه ، ثم قال بغنة قولاً يخرج الكلام به من أنفه ، وكان كلامه
 كأن فيه نوناً ...

ولست مفارقاً قرنيّ حتى يطول تصعدي بك وانحداري
 فقال رجل من جلساء عمر بن عبد العزيز حين حضر غداؤه
 لو دعا الأمير بأسيريه ففداهما معه^(١) ففعل ذلك .

(١) وقيل أيضاً إن الوليد بن عبد الملك حينما قدم المدينة ورآهما بتهاجيان
 أمر والي المدينة محمد بن حزم الأنصاري أن يضربهما ويقيمهما على البلس

ولا شك إن من يخشى مغبة منع الشاعر ، يكون أكثر رهبة منه
 إذا آذاه ومع ذلك لم يخشيه وقد عذبه ومن هذا لتبين أن قصة خوف
 الخليفة عمر بن عبد العزيز من جرير ليست من الحقيقة في شيء .
 ولا ينفي ما تقدم قول المستشرق الأستاذ كليمان هوار من «أن
 عمر كان يفضل جريراً على بقية الشعراء» .

وبين أن هذا التفضيل لا يستلزم إنعام عمر على جرير ، ولا
 يقتضي نوال الشاعر ما عوده إياه خلفاء بني أمية ، وإنما هو تفضيل
 الصالح التقي العفيف لمن يعلم عنه شيئاً من تقوى وصلاح وعفة .
 وانصرم عهد عمر ولم يكن فيه للشعراء ما يحبون ، ومن المؤكد
 أن هذا الزمن كان أجذب أيامهم ، واستقبلوا عهد يزيد بن عبد الملك
 سنة ١٠١ هـ بشيء من الرجاء فأعاد يزيد سيرة من تقدم في اصطناع
 الشعراء . وكان من جرير أن عرض له بالهنيدة التي جاد بها عليه
 أبوه عبد الملك فقال من قصيدة يمدحه بها :

أعطوا هنيذة^(١) يحدوها ثمانية مافي عطائهم من ولا سرف

مقرونين ففعل (وعلى كل فائضة جرت بعد أن اتصل جرير بالخلفاء لا قبل ذلك
 كما رأيت عند كلامنا على الحديث الطويل بين جرير والحجاج أول اتصاله به) .
 (١) اسم للثمن من الابل اختلف في جواز دخول آل التعريف عاينها .

وجاء زمن هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ فكان يقرب الفرزدق
وجريراً شأنه معها ومع الأخطل حينما كان أميراً ، ومنذ عهد
إمارته كان شر الثلاثة قد استفحل ، فأصبحوا شغل الشاغل ،
وحديث المقيم والراحل ، وأصبح الناس يخشون استطالة ألسنتهم
فلم يكن أحد يستطيع ان يتعرض لهم إلا سقط .

وقد قيل إن هشام بن عبد الملك ، قبل أن يلي الخلافة ، قال
لسُبة بن عقال ، وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، ألا تخبرني
عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا
بين عشائهم في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ .

فقال سبة : أما جرير فيغرف من بحر ، وأما الفرزدق فينحت
من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر .

فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً فخلصه ، فقال : ما عندي غير
ما قلت ، فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا بن الأهثم ، فقال : أما
أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأشدهم ميلاً ،
وأقلهم غزلاً ، وأحلامهم عللاً ، الطامي إذا زخر ، والحامي إذا زأر ،
والسامي إذا خطر ، الذي إن هدر ، قال ، وإن خطر ، صال ،
الفصيح اللسان ، الطويل العنان : فالفرزدق .

وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً ، الذي إن هجا
وضع ، وإن مدح رفع ! فالأخطل .

وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكمهم لعدوه سترأ ، الأغر
الأبلى ، الذي إن طلب لم يُسبق ، وإن طلب لم يلحق ، فجرير
وكلمهم ذكي الفؤاد رفيع العماد ، واري الزناد . . . فضحك هشام
وقال ما رأيت كتخلصك يا بن صفوان من مدح هؤلاء
ووصفهم حتى أرضيتهم جميعاً وسلمت منهم .

وفي الحق إن الحكم بين هؤلاء الثلاثة كان أمراً صعباً ومركباً
خشناً ، ومزلة تعقبها مذلة .

ومن أجل هذا لم يكن يجرأ على الحكم بينهم ذو مكانة
يخشى أن تنال بسوء ، وكلما مرت الأيام كان الخوف من
الحكم بينهم يزداد انساعاً ، بنسبة اتساع شهرتهم ، وناهيك بهذه
الشهرة التي أوجدت في جيش من الغزاة اختلافاً كبيراً .

قالوا بينما المهلب ذات يوم بفارس ، وهو يقاتل الأزارقة
سمع في عسكره جلبة وصياحاً فقال : ما هذا قالوا : جماعة من العرب
تحاكموا إليك في شيء فأذن لهم فقالوا إنا اختلفنا في جرير والفرزدق
فكل فريق منا يزعم أن أحدهما أشعر من الآخر وقد رضينا بحكم

الامير فقال كأنكم أردتم أن تعرضوني لهذين الكلبين ليعزقا
جلدي ، لا أحكم بينهما ، ولكني أدلكم على من يهون عليه
جرير والفرزدق ، عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون
الشعر ويقولون فيه بالحق .

فلما كان الغد خرج عبيدة بن هلال اليشكري ودعا إلى
المبارزة فخرج إليه رجل من عسكر المهلب كان لقطري صديقاً ،
فقال له يا عبيدة سألتك الله إلا أخبرتني عن شيء أسألك عنه ،
قل سل ، قال أو تخبرني ؟ قال : نعم إن كنت أعلمه ، قال : أجرير
أشعر أم الفرزدق ؟ قال : قبحك الله أتركت القرآن والفقه وتسألني
عن الشعر ؟ قال : إنا تشاجرنا في ذلك ورضينا بك فقال من الذي يقول :
وطوى الطراد بطونهن كأنها طي التجار بحضرموت بروداً
فقال : جرير ، قال : هذا أشعر الرجلين .

ومن هذه القصة ترى خوف الأمراء وإشفاقهم من التعرض
لها كما ترى اتساع أفق شهرتهما ، فإن كان هذا كذلك زمن
المهلب وعبد الملك ، فما ظنك حينما خبا ضياء حياتهما واحداً
إثر آخر .

ولقد شهد هشام انطفاء هذه الأضواء التي كانت تغمر الأمة العربية ، والتي كانت تملأ الدنيا وتشغل الناس ، عن حق وصدق ، شهد هشام انطفاء شعلة الأخطل ، وهو أمير وشهد مصرع الفرزدق وجريير وهو خليفة .

إذ مات الأخطل سنة ٩٢هـ والفرزدق ١١٤هـ ومات بعده جريير بأشهر ، وقيل بأربعين أو ثمانين يوماً ، ونعي الفرزدق إلى المهاجر بن عبد الله وجريير عنده فقال :

مات الفرزدق بعد ما جدّته ليت الفرزدق كان عاش طويلاً
فاستكبر المهاجر هذا اللؤم والشماتة ، فقال بس لعمر الله ما قلت في ابن عمك أتهجو ميتاً ؟ أما والله لورثيته لكنت أكرم العرب وأشعرها .
فقال جريير إن رأى الأمير أن يكتبها علي ، فإنها سوءة ثم قال من وقته :

فلا وضعت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل عن نفاس تقلت
هو الوافد الميمون والرائق الثأى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت
ثم بكى ، وكفر عن خطيئته ، وقال أما والله إني لأعلم أنني قليل البقاء بعده ، ولقد كان نجمنا واحداً ، وكل واحد منا مشغول بصاحبه ، وقلمنا مات ضد أو صديق إلا تبعه صاحبه .

فكان كذلك ، ومات جرير بعده بأربعين أو ثمانين يوماً ، أو
بعام ، بعد أن رثاه بقصائد عدة تحدث فيها عن محامد الفرزدق
وكرم محنته .

وبذلك انطوت الصفحة الثالثة من هذه النفورة العربية :
أما امتداد حياة جرير ، فربما أشرف على التسعين لأنه ولد في
خلافة عثمان وهي من سنة ٢٣ - ٣٥ هـ فاذا افترضت أنه ولد سنة ٣٠ هـ
وأنه توفي سنة ١١٤ هـ كان عمره (٨٤) عاماً وقيل إنه توفي باليامة
سنة ١١٠ هـ أو سنة ١١٦ هـ ويقول الأستاذ كليان هوار إنه توفي
سنة ٧٢٨ م وفي شذور العقود لابن الجوزي أنه توفي سنة ١١١ هـ .



طبعيت

رأيت مما مر بك ، أن جريراً بلغ الغاية التي يأمل فيها
شاعر هجاء يريد أن يخافه الناس ، وإذا خشى الناس سيف
الحجاج ، وكان العرب يضطربون له خوفاً وفرقاً فما كان ذلك
بأشد وقعاً عليهم من لسان جرير ، وبجسبك أن تعلم أنه في
بيته المشهور :

فغض الطرف إنك من نير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
أخذ جذوة من جذوات العرب ، وأطفاً الجرة الأخيرة من
جمراتهم ، وسيمر بك نبأ هذا بعد حين .

ولقد عاش جرير في بيئة أغرته باللؤم ، وعاصر فئة من الشعراء
حملته على القحّة ، وكان يحمل في قلبه نفساً تضطرم للعزة ، وتحتدم
للانتقام ، فعاش مهيب اللسان ، مخشي الجانب ، جباراً ، متحدياً ،
شرساً ، وجرواً هراشاً ، كما قال الحجاج .

وكان له من السياسة حامٍ يحميه ، ومن العصبية معقل يلتجئ
إليه ، بل كان حماة الأخلاق والدين من الأمراء والخلفاء الأمويين ،

يخرجون على ما كان فيه ، ويُغرون بينه وبين الشعراء .

ولو عاش كل حياته في عصر عمر الأول (الفاروق) أو عمر

الثاني (ابن عبد العزيز) ، بل لو عاش في هذا العصر الذي نعيش

نحن فيه ، لألقم حجراً ، ولأخذ على يديه وعلى لسانه ، ولنال

جزاء ما قدمت يداه ، وما اجترحه لسانه ، وإن نعجب فمن يحبون

التشبه بالماضين وما يتشبهون بهم إلا في هذه القحة ، وقد تغير

الزمان ودار الفلك .

ولقد كان يصح في عصر جرير ، أن ينشأ مثل جرير وألاً

يبالي بقذف المحصنات ونهش أعراض الناس وربما عد ذلك ضرباً

من ضروب العبقرية ، ولكنها عبقرية في القحة على كل حال .

على أن الأحكام نسبية ، وما صح في عصر قد لا يصح في

سواه ، وربما نظر الناس إلى هذه البذاءة التي كان يتشدد بها

جرير والأخطل والفرزدق ، نظراً حسناً حين كانوا لا يأنفون سماع

أشباه ذلك ، ولكن هذا العصر الذي نعيش نحن فيه ، لا يستسيغه

ولا نستسيغ شيئاً منه ومن هنا يصدف الشعراء النبلاء في هذا

العصر عن التهاجي القبيح ، ولن ترى شاعراً يتقيل طريقة المتقدمين

إلا من كان يعيش بروحه في غير هذا العصر ، وإلا من كان
خيالاً من خيالات القرون الغابرة .

فإذا ساءنا أن نجد شيئاً من أشباه ذلك في هذا العصر الذي
نعيش فيه ، فربما حسن للماضين أن ينعموا به ، ومن هنا لا ترائنا
نحب هذه السلاطة في اللسان والفكر عند جرير ، ولا نعجب بها ،
وإن أحبها وأعجب بها من قبلنا وننكر عليه تحديه وجهه وما إليه :
« قالوا إن جريراً ، قدم المدينة فحشد له جماعة ممن يفقهون ،
فبينما هم عنده ذات يوم ، إذ قام لحاجته وجاء الأحوص الشاعر ،
فقال : أين هذا ؟ فقالوا : قام آنفاً ، ما تريد منه ؟ قال : أخزیه والله
إن الفرزدق لأشعر منه وأشرف ، فأقبل جرير ، وقال من الرجل ؟
قالوا : الأحوص بن محمد ، فقال هذا الحبيث بن الطيب ؟ ثم
أقبل عليه فقال قد قلت :

يقر بعيني ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قرت
فإنه يقر بعينها ٠٠٠ أفقر بعينك ؟ ٠٠٠ فأنصرف الأحوص
وأرسل إليه بتمر وفاكهة .

وأقبل الجماعة يسألون جريراً وهو في مؤخر البيت وأشعب
عند الباب ، فجاء أشعب يسأله ، فقال له جرير : والله إنك لأقبحهم

وجهاً . . . ولكني أراك أطولهم حساباً . . . وقد أبرمتني فقال :
أنا والله أنفعهم لك ، فأنابه جرير وقال : كيف قال إني لأملح
شعرك ؟ واندفع يغنيه :

يا أخت ناجية السلام عليكم قبل الفراق وقبل لوم العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت مالم أعلم
فأدناه جرير منه حتى ألصق ركبته بركبته ثم قال أجل
والله إنك لا تنفعهم لي ، وأحسنهم ترتيباً لشعري ، أعد ، فأعاده عليه
وجرير يبكي (؟) حتى اخضلت لحيته ، ثم وهب أشعب دراهم
كانت معه ، وكساه حلة من حلل الملوك ، وكان يرسل إليه طول
مدة مة بالمدينة فيغنيه أشعب ، ويعطيه جرير شعره فيغني فيه . وكان
أشعب من أحسن الناس صوتاً .

فأنت ترى مما مر بك : جبهه للناس عن غير معرفة ، وربما كان
من يجبهه من أحسن الناس إليه .

وترى تحديه لأعدائه ، حين أذن الوليد بن عبد الملك للناس
فدخلوا واطمأنوا في مجالسهم ، ثم دخل جرير فقال : السلام عليك
يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي
في ابن الرقاع المتفرقة أوئلف بعضها إلى بعض^(١) .

(١) مرت القصة آنفاً .

وفي هذه قسط من القحة والتحدي غير قليل .
 ولم يقتصر أمره على هذا ، فقد رأى أن أمراء عصره يغرون
 بين الشعراء ، فاستفاد ذلك ، وأخذ يعين على الشر ، لا يعين طرفاً
 واحداً ، وإنما يعين الطرفين : يوقدها ناراً مستعرة من ناحية ، ثم
 يعود إلى الناحية الثانية فيوقدها أيضاً ، وهذا من غرائب
 طبائع الشريرين .

قالوا : إن ذا الرمة وهشاماً المرئي ، كانا يتهاجيان لأن ذا الرمة نزل
 بقرية لبني امرئ القيس فلم يقروه ، فخرج هاجياً ، فنال منه هشام برجز
 فقال الفرزدق لذي الرمة : أهلك البكاء في الديار وهذا
 العبد يبرجز بك ؟ (يعني هشاماً المرئي) فنال ذو الرمة منه .
 وقال جرير لهشام : عليك العبد (يعني ذا الرمة) وكان
 يكرهه لميله إلى الفرزدق ^(١)

قال فما أصنع يا أبا حذرة وهو يقول القصيد وأنا أقول الرجز
 والرجز لا يقوم للقصيد ، فلو رفدتني !

فأعانه جرير بأبيات فلما سمعها ذو الرمة قال كذب العبد السوء

(١) قيل كان ذو الرمة ممن أعان على جرير ولم يكن يصح له (يظهر له)

فقال فيه جرير : أقول نصيحة لبني عدي ثيابكم ونضح دم القتيل

ليس هذا الكلام له ، هذا كلام نجدى حنظلي . هذا كلام
ابن الأثان .

ثم لقي ذو الرمة جريراً فقال له : تعصبت للمرئي وأنا
خالك . . ؟ قال : حين قلبتُ ماذا ؟ قال : حين قلتَ له أن يقول لي :
عجبت لرحل من عدي مشمس وفي أي يوم لم تشمس رحالها
فقال له جرير : لا بل أهلك البكا في دارمية حتى أبحث محارمك .
ثم حدثه جرير بما بلغه من ميل ذي الرمة عليه مع الفرزدق
فجعل ذو الرمة يعتذر إليه ويخلف له .

فقال جرير اذهب الآن وقل للمرئي :

يعد الناسون إلى تميم بيوت المجد أربعة كبارا
يعدون الرباب وال سعد وعمراً ثم حنظلة الخيارا
ويهلك بينها المرئي لغواً كما ألفت في الدية الحوارا
فقال ذو الرمة قصيدته التي أولها :

نبت عيناك عن طلل مجزوى عفته الريح وامتنح القطارا
وألحق فيها الأبيات التي قالها جرير ، فلما أنشدها وسمعا
المرئي جعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بويله وحربه ويقول مالي
ولجرير فقيل له وأين جرير منك . . . هذا رجل يهاجيك

وتهاجيه فقال هيات لا والله ما يحسن ذو الرمة أن يقول :
وبذهب بينها المرئي لغواً كما أُلغيت في الدية الحواراً^(١)
هذا والله كلام جرير ما تعداه قط !

ومر الفرزدق بذى الرمة وهو ينشد هذه القصيدة ، فلما أنشد
الآيات الثلاثة ، قال له الفرزدق : أعد يا غيلان فأعاد ؛ فقال له : أنت
تقول هذا ؟ قال : نعم يا أبا فراس . قال : كذب فولئ والله لقد نحلكتها
أشد لحين منك هذا شعر ابن الأثان .

وجاء المرثيون إلى جرير فقالوا يا أبا حذرة قد استعلى علينا
ذو الرمة فأعنا على عادتك الجميلة .

فقال - وقد وصل إلى مبيتاه من إخضاع ذي الرمة - : « هيات
قد والله ظلمت خالي لكم مرة وجاءني فاعتذر وحلف وما كنت
لأعينكم عليه بعدها » .

ولو أن خاله لم يعتذر إليه لظل يمد هشاماً وقومه حتى يخضع
إليه النافر ، ويظهر أن نفس جرير لم تطب على ذي الرمة
حتى أنه حينما كان ذو الرمة ينشد المهاجر بن عبد الله في اليمامة
وجرير يسمع ، قال المهاجر كيف ترى ؟ قال جرير : لقد قال

(١) الحوار ولد الناقة ولا يُبعد في الديات شرعاً .

وما أنعم ، فغضب ذو الرمة ونهض وهو يقول (أنا أبو الحرث
واسي غيلان) فنهض جرير وتحدث عن نفسه بما فيه الغناء ،
وصورها تصويراً هو الغاية فقال :

إني امرؤ خلقت شكساً أشوسا

إن تضرساني تضرسا مضرسا

قد لبس الدهر وأبقى ملبسا

من شاء من نار الجحيم اقتبسا

فهدأ ذو الرمة وحاد عنه وجلس صامتاً لا يجيب .

وإذا أضفت إلى هذا الوصف ما أجاب به أبا عمرو حين سأله
علام تقذف المحصنات من كذا وكذا ؟ فقال : « إنهم يبدوونني
ثم لا أعفو » .

إذا أضفت إلى ذلك الوصف هذا الجواب ، عرفت أي حقد
في نفسه على الناس ، فهو شكس لا يعفو ، وشرس كأنه نار الجحيم ،
وبين بعد هذا أن من يحبه الناس على غير معرفة ، ومن يعين على
الشر بشر ، ومن يصف نفسه بالشكاسة والشراسة ، إن من
يكون هذا شأنه ، لا يفتقر عن تابع أعدائه ، أو تهديد من تسول
له النفس أن يميل لأعدائه .

فقد قالوا : إن الفرزدق أتى مجلس بني الهجيم في مسجدهم فأنشدهم ،
وبلغ ذلك جريراً ، فأتاهم في الغد لينشدهم ، فقال له شيخ منهم :
يا هذا اتق الله فإن هذا المسجد إنما بني لذكر الله والصلاة ؛ فقال
جرير : أقررتم للفرزدق ومنعموني وخرج مغضباً يقول :
إن الهجيم قبيلة ملعونة حص اللحى متشابهو الألوان
وبينما كان جرير بقاء ينشد قوله :

لولا الحياء لهاجني استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار
طلع الأحوص ، فلما نظر إليه قطع الشعر وقال بصوت عالٍ :
عوى الشعراء بعضهم لبعض عليّ فقد أصابهم انتقام
إذا أرسلت قافية شروداً رأوا أخرى تحرق فاستداموا
فمصطلم على المسامع أو خصي وآخر عظم هامته حطام
ثم عاد إلى قصيدته الأولى من حيث قطع ، فسئل عن ذلك فقال :
نهيت الأحوص أن يعين عليّ الفرزدق .

ثم قال : أنا والله ما تعوذت من شاعر قط ولولا حقكم ما تعوذت منه .
ولا شك أن رجلاً يقول لراعي الابل : « لقد أقت في هذا المصر
(البصرة) سبع سنين لا هم لي إلا أن أسب من سب قومي والآن أشتم
من شتمهم » إن من يقول هذا وغيره في وصف نفسه لا يتعوذ

من شاعر ولا يهاب ، وأهون شيء لديه الشعراء ! ...
ولكن الرهبة قد تدركه في بعض الأحيان حينما ينفرد في
الصحراء ، فربما رمى به السير إلى قوم لهم فيه رغبة لثرة ، فإذا
أصابه الدهر بهذا ، أثنى ومدح ندماً كما جرى له حينما سقط على
أبيات من ضبة تخافهم لسوء أثره فيهم فمدحهم وقال إن قلبه
غير قال لهم طول الحياة فلا خوف عليه فقالوا له : أجل يا أبا
حزرة لا خوف عليك

وما ندري صحة هذه القصة وقد رواها ابن سلام عن أبي
يحيى (الضبي) .

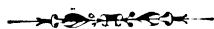
ويكاد يشبه هذا ما ساوره من الندم حين نزل بضعة في الشام ،
على قصر مشيد حسن ، وقد سأل عن صاحب القصر ف قيل له نمير
فذكر ما كان بينه وبين نمير فقال هذا شامي وأنا بدوي لا يعرفني .
واستضافه ، فعرفه صاحب القصر ، وجاءت ابنة له صغيرة
فسأله أمن وبر هي ؟ (يعرض بقصيدته التي هجا بها بني نمير) ، فقال
جرير يرحمك الله إن الشاعر ليقول ووالله لقد ساءني ما قلته ولكن
صاحبكم (راعي الإبل) بدأني فانتصرت ، وذهب يعتذر منه
فقال : دع ذا عنك يا أبا حزرة فوالله مالك عندي إلا ما تحب .

ثم أحسن اليه وزوّده وكساه . قال جرير : فأنصرفت وأنا
أندم الناس على ما سلف مني لقومه .

* * *

هذه هي الصورة الواضحة تأخذها من أخبار جرير ومن
أشعاره عن نفسه وطبيعته ولكنك تضطر إلى أن تضع لجانبها
صورة ثانية فيها شيء من الحلم والتغاضي إذ يقول :
أني امرؤ يذب عن حريمي حلمي وتركى الجهل للثيم
والحلم أحمى من يد الظلوم

وليس بصحيح أنه يذب عن حريمه بحلمه ويترك الجهل للثيم
إلا أنه ربما تغاضى وصفح حينما لا يرى في الحلم منقصة ولا
غضاضة ، والمرء مهما جهل فقد يحلم ، كتغاضيه عن بشار بن برد .
فقد تعرض لجرير وهجاء ، وبشار يومئذ صغير ناشئ ، وجرير مع
العيق ، فأراد أن يتعلق به ليرد عليه ، ولكن شاعرنا لم يكثر
له ولو أجابه لجعل له قيمة كبرى من مستهل حياته ، وذلك
ما كان يطمع فيه بشار ، وهو ما تحدث به حينما شب واكتهل .



أثر هجائه

سلف لنا القول أن جريراً كان مهيب الجانب ، مخيف اللسان ، لهجائه أثر رهيب في الأفراد وفي القبائل .
فأما تأثيره في الأفراد فقد بلغ من قوته أن فرق بين الزوج وزوجه :

قيل إن عمر بن يزيد بن عمير الأسدي كان يتعصب للفرزدق على جرير ، فتزوج من بني عدس بن زيد فقال جرير :
نكحت إلى بني عدس بن زيد فقد هجنت خيلهم العربا
أتنسى يوم مسكن إذ تنادي وقد أخطأت بالقدم الركبا
من قصيدة له ؛

فاجتمع أهل الفتاة على عمر بن يزيد ولم يزالوا به حتى خلعوا المرأة منه .

وتزوج الفرزدق حدراء بنت زريق على حكم أبيها ، فاحتكم مائة من الإبل فدخل على الحجاج يسأله ذلك فعذله ، وقال له أنتزوج امرأة على حكم أبيها ؟ فقال عنبسة بن سعيد - وأراد نفعه -

إنما هي إبل الصدقة ، فأمر له الحجاج بها ، فوثب جرير يقول :
يازيق قد كنت من شيبان في حسب

يازيق ويحك من أنكحت يازيق

وهي أبيات كثيرة فلم يجبه الفرزدق ، وعاد جرير إلى
استثارة آل حدراء على الفرزدق ، وكرهت بنو شيبان أن يهتك
أعراضهم ، فلما أراد الفرزدق نقل حدراء اعتلوا عليه ، وقالوا له إنها
ماتت وظفر جرير فقال :

فأقسم ما ماتت ولكننا التوى بحدراء قوم لم يروك لها أهلا
وزعموا أن الفرزدق قدم على المهاجر بن عبد الله الكلابي ، والي
اليامة ، وأراد ألا يظهر لجرير ، فعلم جرير به وهجاه أبيبتين ففر من
ساعته وقال : والله لا أقيم باليامة ولا أرزؤه ثم رحل لوقته .

ولعل هذه القصة مما ليس له نصيب من الصحة ، لأن الفرزدق
كان لا يهاب جانب جرير ، وخاصة إذا كان في كنف والي اليامة .
وقد قيل : إن جريراً إنما عظم في عيون البعض لأنه وقف للفرزدق ! .
هذا شيء من تأثيره في الأفراد ، وأما تأثيره في الجماعات والقبائل
فيقوم على أنه لم يهج قوماً إلا فضحهم وهدم بناءهم ، ووضع
من شرفهم - كما كان يفعل بالأفراد - إلا بني طهية فقد كانوا

كما قال لابنه جحناء - رعاء غنم فلم - يجد لهم شيئاً ينالهم به ،
ولا بناء يهدمه ويسىء إليهم فيه .

وحدث الرواة أن جريراً أنزل بقرية يقال لها : عزولاء ، فخط
رحله على باب رئيسها الآخرم بن أخضر الوائلي فبعث الصبيان
براحلته ، فتحول عن هذه القرية إلى أخرى ونزل بباب رجل
يقال له عبد الله بن بدر السحيمي ، فنحّر له وأكرمه ، وجاء الآخرم
فرأى آثار رحل جرير ، فقال لأهله ما هذا المناخ الذي أرى ؟
قالوا : إنسان يقال له جرير بن الخطفي أناخ ، فبعث براحلته الصبيان
فتحول إلى عبد الله ، فذهب فنظر إليه وقد نحّر له فنأدى ياسوء
صباح بني مازن ، وكان مطاعاً في قومه مسوداً ، فلم يترك بكرّاً
ولا ثيباً إلا صاح بهن ، حتى أنزلهن أكمة ، فقال إذا قلت لكن
قد جاء فانهضن إليه ، وصحن والظمن الوجوه وقلن ياسوء صباح
نسوة بني مازن ، وتعوذن به ففعلن ذلك ، وكان جرير قد
بدأ فبهجاهم ببيتين .

فقال لمن جرير : أما البيتان فقد مضيا ، ولكن وهبت لكنّ

ماسوى ذلك .

ونحّر له ابن الآخرم ، وأكرمه وأقام جرير عنده يوماً .

وتحدث الرواة أن جمرة العرب الباقية ، أخذها بقصيدته الدامغة
التي فضحت بني نُمير ، وإن لها لحديثاً طريفاً نسوقه إليك قصة
تتبع فيها العصر الذي كان يعيش فيه شاعرنا ، وألوان الحياة
الأدبية التي كان يحياها القوم الأولون .



جرير وبنو نمير

« يا أبا جندل ؛ إنك شيخ مضر وشاعرها ، وقد أتى بي إليك أني وابن عمي نستبّ صباح مساء ، وما عليك غلبة المغلوب ، ولا لك غلبة الغالب فإما أن تدعني أنا وصاحبي ، ويكفيك أن تقول : كلاهما شاعر كريم إذا ذكرنا ، ولا تحتمل مني ولا منه لائمة وإما أن يكون وجه منك إلي أن تغلبنى عليه لمدحي قومك ، وذني عنهم وحطّي في حبلهم » .

قال جرير ذلك للراعي عبيد بن حصين أحد بني نمير بعد أن بلغه خبره إقامة وأقعده وهو : أن عرادة النميري نديم الفرزدق قد اتخذ طعاماً وشراباً ، ودعا إليه الراعي حين قدومه إلى البصرة ، وجلس يوماً آكله ويشاربه ، فلما أخذت الكأس منها قال عرادة النميري : يا أبا جندل ؛ إنك من شعراء الناس ، أمرك ضخم بينهم ، فقل شعراً تفضل به الفرزدق على جرير ، فامتنع الراعي بادئ الأمر غير أن صاحبه ما زال يزين له ذلك حتى قال عبيد :
يا صاحبي دنا الأصيل فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

فطار عرادة لذلك فرحاً ، وعدا بهذا الشعر إلى الفرزدق وأنشده
إياه ، فترامى الخبر بعد أيام إلى جرير ، فتحسب أنه مغلب للفرزدق
وقد شهد بذلك عبيد شاعر مضر وذو سنها .

لهذا الخبر قال جرير قوله لأبي جندل فقال له هذا : « صدقت
أنا لا أبعدك من خير ميعادك وميعاد قومك ، غداً فمأتمذر عما قلت » .

بكر جرير ثاني الأيام إلى حلقة قومه بني يربوع ، وقد قص
عليهم الخبر فما انتظمت حلقتهم بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ، حتى
وقف عليهم رجل من أسد ، له علم بالأمر فقال له بنو يربوع :
« اذهب إلى حلقة بني نُمير ، فتعرض لراعي الإبل واذكر مجلسنا
لعله نسي الذي قاله لنا بالأمس . » فأتاه فقال : « يا أبا جندل هذه
بنو يربوع تنضح جباههم العرق ، ينتظرون ميعادك اليوم » فذكر
الراعي ذلك ، فقام ليعتذر ولكن قومه أدر كره وتمسكوا بأسافل
ثوبه وقالوا : اجلس فوالله لأن ينضح قبرك غدوة في الجبانة
أحب إلينا من أن يراك الناس تعتذر إلى هذه الكلاب . فسمع
الرجل ذلك فنفلة إلى بني يربوع .

ثار ثائر جرير ، وجن جنونه ، وجعل القوم يكلمونه فلا يجيب ،
وترك المجلس غضباناً ، وانتظر أبا جندل في الطريق ليراه ويزجره
وإنه لهنالك إذ ألقى عبيداً راكباً بغلته فتعرض له قائلاً :
« يا أبا جندل إني قد أقمت بهذا المصر سبع سنين لا أكسب
أهلي دنيا ولا آخرة ، إلا أن أسب من سبهم ، فلا يقع بيني وبين
هذا الرجل - يعني الفرزدق - منك ما أكره » ثم أردف
ذلك بقوله « أنت شيخ مضر وشاعرهم ، وقولك مسموع فيهم
فمهلاً مهلاً » قال أبو جندل وكان عاقلاً « معاذ الله أن أفعل
ما تكره » فقال جرير « ومع ذلك فانت ترفع الفرزدق وقومه
حتى لو تقدر أن تجعلهم في السماء لفعلت ، وتقع في بني يربوع حتى
تصير إليّ في رحلي ! »

وإنهما لفي ذلك الحديث وقد وضع جرير شماله على بغلة أبي
جندل إذ أقبل جندل راكباً بغلته ، فسأل عن محدث أبيه فلما
علمه رفع كرمانية في يده وضرب بها عجز بغلة أبيه قائلاً
« لا أراك يا أبتاه واقفاً على كلب من بني كليب . كأنك
تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً » . « فاندفعت البغلة مسرعة »
وقد رمت جريراً فسقطت قلنسوته سقطت مشوؤومة وتبعها هو

إلى الأرض فقال وهو ينظف قلنسوته واقفاً ينظر إليها وقد
أوشكا أن يتواريا في السواد : ليعلمنَّ شأن أبيه وقومه بعد حين .

* * *

لجريز راوية هو مولى لبني كليب كان يبيع الرطب بالبصرة
وكان يجمع أشعار جرير ليحفظها ويرويها له ، وقد تمكن حب جرير
من فؤاد (حسين) هذا راويته ، فذهب جرير إليه وأعلمه بما
جرى وقال إني آتيك الليلة فأعد لي شواءً وفراشاً ونبيذاً محشفاً .
ثم تركه جرير وقصد الشوارع يطوفها ونفسه وثابة لا يقدر
على ضبطها ، حتى إذا أقبل الليل بجيوشه ولى وجهه شطر البيت وفي
خوابه ما لو كان بأمة جامدة لحر كها ، ودخل على راويته وقال : هل
هيأت كل شيء ؟ قال : نعم ، وعلام عولت الآن ؟ قال أما والله لأؤقرن
رواحله بما ينقلها خزيًا ينقلب به إلى أهلها واتكونن قصيدي فيهم
دماغه فاضحة تسير مع الدهر وتطويه ، ولألحقن بني نير بجمرتي
العرب الخامدتين : بني الحارث بن كعب لمخالفتها مذحج ، وبني ضبة
لمخالفتها الرباب .

وبعد هنيئة صمتٍ قال « هلم عشاءك » فأحضر له العشاء ، وحانت
صلاة العشاء فقام وصلّاها ثم قال : « ارفعوا لي باطية من نبيذ

وَأَسْرَجُوا لِي « ففعلوا ، فشرب أقداحاً ثم قال هات دواة وكتفأ ،
فأتاه بما أراد فجعل جرير بينهم ويجبو عريان ويقول اكتب ،
وابتداً بقصيدته :

أَقْلَى اللّٰوْمِ عَاذِلٌ وَالْعَتَابَا وَقُولِي إِنِّ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا
وبينا هو في تمتته سمعت صوته عجوز في الدار فاطلمت من
الدرجة حتى نظرت إليه ، فإذا هو في تلك الحال يجبوعلى الفراش عريان
لما هو فيه ، فانحدرت وقد خشيت مغبة هذا الاطلاع وقالت
« ضيفكم مجنون رأيت منه كذا وكذا » فقالوا « اذهبي لطيتك
نحن أعلم به وبما يارس » .
وأدركه السحر وهو على تلك الحال حتى وصل إلى شطره
الذي يقول فيه .

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ

فازدادت تمتته ونشوته لما شرب ، واستعصى عليه الشطر الثاني
فقال لراويته ويحك أطفئ السراج ، ثم تناول منديلاً كبيراً غطى
رأسه زيادة في طلب الخلوة ، وفتّر برهة طويلة والراوية ينظره حتى
عيل صبره ، وكان للكرى عليه سلطان فاسترسل إليه ، وما
زال كذلك حتى ضرب صدر جرير نائماً فوثب جرير حتى أصاب

السقف رأسه فانتبه الراوية مذعوراً وإذا بجريـر يكبر ويصيح
أخزيته ورب الكعبة اكتب :

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

غضضته وقدمت إخوته عليه ، والله لا يفلح نميري بعدها أبداً .
وانقضى معظم الليل وجريـر يهذب قصيدته ويزيد فيها حتى
خرجت آية في الشعر ومصيبة في الهجاء ، ثم أطفأ سراجـه ونام وهو
يقول : والله لقد أخزيتهم آخر الدهر ، فلن يرفعوا رأساً بعدها إلا
نكس بهذا البيت وجعل يردد قوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

أصبح جريـر على جمر الغضا ، وما علم أن الناس قد أخذوا مجالسهم
في المربد ، وفيهم أبو جندل وابنه والفرزدق ، حتى دعا بدهن فادّهن
وكف رأسه ، وكان حسن الشعر ثم قال : يا غلام أسرج لي ؛ فأسرجـه
حصاناً ثم قصد مجلسهم يستحث حصانه فبلغ المكن فقال بصوت
عال سمعه من كان هناك : يا غلام — دون تحية أو سلام — قل لعبيد
أبعثك نسوتك تكسبن المال بالعراق ؟ أما والذي نفس جريـر في
يده لترجعن إليهنّ بمر يسوؤهن ولا يسرهن ؛ أقسمت قسماً

بالله لا أحت فيه ، إن لكم ميعاد سوء وذلة ، ولأؤقرن رواحلكم بما
 ينقلها خزيًا وعاراً . ولم يكده يقول الكلمة الأولى حتى أشربت
 الأعناق إليه على أنه قصد صاحباً له قريباً في مجلسه من أبي جندل
 فأتاه وأخذ بتلابيب راعي الإبل وقال : إنكم لن تعودوا شم الأنوف
 ججاجح بين العرب بعد الساعة ، ثم تركه وقال منشداً قصيدته .
 أَقْلِي اللّوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا
 أما الفرزدق فقد كان يصغي إلى جرير لعلمه أنه سيقذع أيما
 إقذاع ، وانطلق جرير يقول والناس آذان تصغي إليه فلما بلغ قوله .
 أجندل ما تقول بنو نخير إذا مال . . . في أ . . . أليك غاباً
 قال يقولون شراً أتينا فبئس والله ما كسبنا قومنا .

ولما انتهى إلى قوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
 أقبل الفرزدق على راويته فقال « غضه والله فلا يجيبه ولا
 يفلح بعدها أبداً » وقال عبيد « أخزيتهم ، أخزاك الله ، آخر الدهر » .
 وحينما بلغ قوله :

بها برص بجانب اسكتها

وضع الفرزدق يده على عنقه يسترها عن عيني جرير الذي
كان يرهاه وحر كانه فأتى جرير قوله :

بها برص بجانب اسكتيها كعنقة الفرزدق حين شابا
ولعله استعاض عن شطر لاندري ما هو بشطرقصده إلى الفرزدق
ارتجالاً ، وعند ذلك نكس الفرزدق رأسه والتفت لراويته يقول
اللهم أخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير
هذا ولكن طمعت الإبابة فغطيت وجهي ، فما أغناني ذلك شيئاً ،
فأنا الذي جنيت على نفسي الساعة لأنني نهيت إليها ، ألم أقل لك
إن شيطاننا واحد ، ثم صمت وظل صامتاً حتى إذا انتهت القصيدة
ذهب لا يلوي على شيء — أما رأي الإبل فقد غض الطرف —
كما شاء جرير — وتورد وجهه وصد هو وابنه حتى إذا فرغ جرير
ذهب عبيد إلى قومه يقول « — ركابكم ركابكم فليس لكم هنا
مقام فضحككم والله جرير » .

فلم ير الناظر ساعتئذٍ إلا وجوها ممتعة الألوان ، وإلا ضوضاء
الرحيل وقالوا له هذا شوؤمك وشوؤم ابنك علينا ، قال كلا يا قوم
لست شوؤماً عليكم وليس ابني كذلك وإنما هو جرير شوؤم الناس
أجمعين ، فقال بعضهم لأبي جندل ما الذي دعاك إلى التعرض له

والفرزدق ؟ ألا تعلم أن هؤلاء الثلاثة (يعني جريراً والفرزدق
والأخطل) في حرب عوان وأنه لم يبق أحد من الشعراء في عصرهم
إلا تعرض لهم ؟ فافتضح كما افتضحنا وسقط وبقوا يتصاولون ؛ قال :
خلوا سبيلي يا قوم إنه القضاء ، وهل يغني حذر عند قدر ؟

وما زال وجل شعراء بني نغير يزداد مع الأيام حتى تجشم بعضهم
الرد على جرير خشية أن يقال فيهم أكثر مما قيل ولكن تلك الأشعار
لم تنفع نغيراً ولا أضرت بجرير .

أدالت هذه القصيدة من عز بني نغير من عامر بن صعصعة ، وأصبح
كل منهم ينتسب عامرياً بعد أن كان إذا سئل ممن الرجل ؟ قال
من نغير . . . ألا ترى . . . ونخم لفظه ومد به صوته .

أما أبو جندل فكان عندهم رمز الشوئم هو وابنه وأما جرير
فكان عندهم ملقّب السباب والشتائم إلى يوم الدين وقد كابد بنو
نغير أشد ما يكابد ذليل بعد عز ، فقد قيل : إن مولى الباهلة — كان
يرد سوق البصرة ممتاراً والبصرة حلبة العرب في تلك الأيام .
وكان بعض بني نغير يصيح به يا جوداب باهلة فيكابد من ذلك ألماً جسيماً
حتى ضجر منهم فقص الخبر على مواله فقالوا له إذا نبزوك فقل لهم :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
ومر بهم ذات يوم فنبزوه فأراد البيت فاستعصى عليه ونسبه
فقال النابذة غمض وإلا جاءك ما تكره . فعضوا أصابعهم ندماً
وكفوا عنه ولم يعرضوا له ولا لسواه بعدها .

وحكي أن امرأة مرت ببعض مجالس بني نمير فأداموا النظر
إليها فقالت قبحكم الله يا بني نمير ما قبلتم قول الله عز وجل :
(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولا قول الشاعر :
فغض الطرف (البيت)

وانتشرت قصتهم وفضيحتهم بين العرب حتى أصبحت الإشارة
إليها وتغني فقد قيل : إن شريك بن عبد الله النميري سائر
يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري فبرزت بغلة شريك فقال له يزيد :
غض من لجامها فقال إنها مكتوبة أصلح الله الأمير فضحك وقال :
ما ذهبت حيث أردت .

وإنما عرض بقوله غض من لجامها بقول جرير (فغض الطرف إنك
من نمير ... البيت) فعرض له شريك بقول ابن دارة ببني فزارة إذ
كانوا يرمون بإتيان الإبل .

لا تأمن فزارياً خلوت به على قلوصلك واكتبها بأسيار

الشعراء المتألبون

« قالوا : إن رجلاً قال لجريو من أشعر الناس ؟ قال : قم حتى أعرفك الجواب فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطيه وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به اخرج يا أبت .

فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته فقال : ألا ترى هذا ؟ قال الرجل : نعم قال : أو تعرفه ؟ قال لا قال هذا أبي ، أفتردي لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال لا ، قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن - ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلّبهم جميعاً »

وسواءً أصبح هذا العدد من الشعراء المهاجرين أم لم يصح فإن الشعراء الذين تعرضوا له كانوا من الكثرة بحيث لا يقف لهم إلا عبقرى مطبوع ، أو فحل أ كول ، - على رأي المتقدمين - ولقد عرفت أن أول ما كان من شأنه في التهاجي أن شتم غسان بن هذيل إذ كان يشتم قوم جرير فأعان غسان شاعرهم يدعى البعيث وفضل غسان على جرير فالتفت جرير الى البعيث فإذا الفرزدق يعين البعيث

فيلتفت إليه جرير وينصرف الفرزدق الى جرير فيستعر بينهما الهجاء
ومال الأخطل إلى الفرزدق برشوة من خمر وكسوة كما قيل
فأخذ بهجائه جرير دون أن ينسى غيره فكان يقول :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وصفا البعيث جدعت أنف الأخطل
وتعرض عمرو بن لجأ هذه الخصومة المستعرة ، وقيل إنه
غير بيتاً لجرير إذ يقول :

لقومي أحى للحقيقه منكم وأضرب للجبار والنقع ساطع
وأوثق عند المرفهات عشية لحاقاً إذا ما جرد السيف لامع
فزعم أن جريراً قال :

وأوثق عند المردفات عشية لحاقاً إذا ما جرد السيف لامع
وطال أمر هذه المهاجاة بينهما ، وكان عمرو بن لجأ دون
جرير فأنف الفرزدق أن يتناول ابن لجأ على خصمه وابن عمه
فقال لعمر بن عطية أخي جرير : قل لأخيك انت التيمي من عل
كما أصنع بك وقال الفرزدق لابن لجأ :

وما أنت إن قرما تميم تساميا أبا التيم إلا كالوشيطه في العظم
فلو كنت مولى العزأو في ظلاله ظلمت ولكن لا يدي لك في الظلم

فقال له ابن لجأ :

كذبت أنا القرم الذى دق مالكا وأفناء يربوع وما انت بالقرم
فأعرض عنه الفرزدق احتقاراً لشأنه .

ومشت رجال بين جرير وابن لجأ وما زالوا بهما حتى أصبحوا
بينهما باليهود والمواثيق المغلظة إلا يعودا ، فكان جرير يسأل الواحدة
بعد الواحدة في ابن لجأ فيقول له ابن لجأ : والله ما نقضت هذه
ولا سمعتها فيقول جرير هذه كانت قبل الصلح !

أما الرجال الذين سعوا بالصلح بينهما فمن تميم - كما نرجح -
لا من تميم - كما في طبعة الأغاني - لأن رجال تميم كانت
تستطيع أن تصلح بين جرير والفرزدق وهما من أبناء الأعمام ،
ولم تكن تميم - القبيلة النبيلة - بالموضع الذي ترهب فيه جانب
ابن لجأ وقد رأت قرمها يملآن الدنيا سباباً وشتيمة ولا قيمة
لابن لجأ أمامها .

وكان قد أعان ابن لجأ البلتع المستنير بن سبرة العبدي
فاحترق بنار جرير ، واحتدم الهجاء بين سراقه بن مرداس البارقي
وبين شاعرنا إكراماً للأمرير بشر بن مروان الذي كان يغري
بين الشعراء .

وأعان عبيد (راعي الابل) الفرزدقَ فكان من شأنه ماتعلم ،
ونطلع الى الشهرة على حساب جرير العباس بن يزيد الكندي
فتركه شاعرنا خمس سنين ، لم يلتفت فيها اليه ، ثم جاء جرير قوم
العباس وطلب اليهم أن يكفوه فامتنعوا وهددوا جريراً فجهاه .
وجاء جفنة الهزاني يطلب كسوة جرير التي أهداه إياها الوليد
فأبى جرير وثار بينهما ما ثار ، ولعل الذي أغراه المزار بن منقذ ،
وكان قد أعان الفرزدق فصلى بنار جرير ، وكذلك كان الأشهب
بن رميلة ، قد اعان الفرزدق فوسمه جرير ، وهجا حكيم بن معية
الذي اعان غسان السليطي ووسمه ببسمه ونال من اللطمس الذي
اعان الفرزدق ثم اعتذر لقومه فلم يعذروه وانشدوه شعراً في هجائه .
وهجا هبيرة بن الصلت الربعي والطهوي لأنهما كانا يرويان
شعر الفرزدق ووصم علفة والسرندی من بني الرباب لإعانتها
ابن لجأ . وهزى من عقبه بن السميع لأنه نذر دمه .
وجاء شحمة الأعور النبهاني يسأله واشتط ، ولم يكن عند
جرير مال فتهاجيا .

وكان ذو الرمة يميل الى الفرزدق ثم اعتذر . ونال عدي بن
الرقاع من أذى جرير شيء كثير

بخله

حينما تستخدم العداوة بين الأفراد ؛ يختلقون ما لم يكن ، ويصمم كل امرئ عدوه بما يمتد إليه خياله وهواه ؛ فهم ينظرون في الحِصَال التي يمدح عليها المرء ، فينالون ويضيفون إلى الحقيقة ما يغير معالمها من البطل ، وقدماً أغري الناس بتنقص أعدائهم ، وبثلب منائهم .

فإذا كان الشأن كذلك في سائر الخلق ، فما نقول في العباقرة الذين لا يتفق الناس عليهم ، بالخير أو بالشر ، وما تقول فيمن ينصب نفسه لعداء الناس ، أو ينصبه الناس غرضاً لأحقادهم . إن التزيد والتنقص في أشباه ذلك لكثير ، وإذا كان الأعداء لا يتحرجون في وصم أعدائهم بما يشين فإن المريدين والمشايعين لا يفتنّون عن ذكر محاسن من يشايعون ، ولا يجدون ما يقابل تلك الإساءات إلا الإكثار من المحاسن ، باطلة كانت أم حقاً . ومن هنا نرى الحقائق القديمة - والحديثة أيضاً - قد اكتنفها طرف من النقص ، وطرف من الزيادة ، وأصبحت خصال الرجال المترجمين

— على الأغلب — ضائعةٌ بين تشيع المتشيعين ، وعداوة المعادين .
هو لا ، ينتقصون ويثلبون ، وأولئك يطرون ويعجبون ، وأنت
بينهما حائر متلوم .

وليس المخرج من أشباه هذا بسهل واضح ، وإن كان يجدي
في البحث أن ننظر في النصوص ونقارن بينها وأن ننتحن الرواة
على محك العلم والثقة ، فربما وضع الحق ، واستبان للعين البصيرة
من معرفة الرواة ، ودراسة النص ومقارنته بسواه .

وأمامنا اليوم قصة بخل شاعرنا جرير ، وانصارحك انها إلى
الاختلاق أقرب — كما تبين لنا — وأن بخله يكاد يشابه
بخل المتنبي ، وقد وصم أبو الطيب قديماً بما هو براء منه لأسباب
ليس هنا موردّها وقد ذكرها المناخرون من الباحثين .

لم يكن جرير بخيلاً ، بل كان ندي الكف ، إلى الكرم
أقرب منه إلى الشح ، وإذا جاء طالب لم يتبرم وأعطاه من
(من خير) ما يملك .

وكان من الطالبين من يرغب في خير ما عند جرير ،
وبيّن أن الرجل لا يستطيع أن يمنح الطالب (خير) ما عنده للحاجة
إليه ، ومن هنا نشأت فكرة بخل جرير

جاءه جفنة الهزاني مادحاً فسأله جرير عن حاجته ، كما يسأل
 المثري الكبير طالباً صغيراً ، فقال له جفنة حاجتي : الحلة التي كساها
 الوليد بن عبد الملك هذا العام ؛ وظاهر أن طلباً كهذا ليس فيه من
 الأدب شيء ، أبي جفنة أن يأخذ إلا تلك الحلة ولم يرض بقول جرير
 له : إني لم أقف فيها بالموسم ، ولا بد من أن أقف فيها ولكني أكسوك
 حلة خيراً منها كسانيا الوليد عام أول ، وأزيدك معها دنائير نفقة .
 هذه قحة جفنة الهزاني الذي أشاع البخل عن جرير ،
 وأغراه وأعانته المرار بن منقذ ، صاحب الفرزدق ومعينه على
 جرير وقد أعطى المرار جفنة ناقة له يقال لها القصواء وحمله
 على هجاء جرير .

فهذا أول ما تهدم من بخل جرير ، ويلحق به أن شحمة
 الأعور النبهاني كان متزوجاً من طيء ، وجاء بزوجه فولدت
 في بني سليط ، فأعطوه ما رضي به ثم حملوه على أن يسأل
 جريراً أو أن يشتط في الطلبة ، لما كان بين بني سليط - رهط
 غسان السليطي - وبين جرير وقومه .

وكان جرير مملقاً في تلك الآونة ، وكان شحمة مشتطاً في
 الطلب ، وكان محمولاً على هذا الشطط باغراء ، وبديهي بعد

هذا ألاّ يتفق جرير وشحمة ، وبين أن جريراً لا يوجد بالمفقود ،
 فارتحل شحمة يهجوّه ويخزّه ويمدح غسان السليطي وقومه .
 وهذا مصدر آخر في بخل جرير تهدّم وتقوّض .
 وربما نساءنا عن إملاق جرير ، وقد كان يجري عليه كل
 عام أربعة آلاف درهم مع ما يتبعها من كسوة وحملان وكيف
 كان ينفق ذلك ليدعي لشحمة أن ليس عنده ما يوجد به .
 والذي يعلل هذا السؤال ويحجب عنه أن جريراً كان
 مُعَيَّلاً^(١) وله ثمانية أبناء ذكور وابنتان ، بله زوجته وأمة كانت
 عنده تشكو خفة المطعم والملبس والغشيان^(٢) ثم إن ما كان يجري
 عليه انقطع زمن عمر بن عبد العزيز فلعلّ مقدم شحمة كان
 إذ ذاك .

وتوءّد بعد هذا ، أن جريراً كان لا يبخل بما يملك ، ويدل
 على ذلك أن أشعب كان ينال من دراهم جرير شيئاً كثيراً ، وكان

(١) كثير العيال الذين يجب أن ينفق عليهم أنظر آخر ص ١٠ .

(٢) كانت الأمة قبله عند بني زيد وهم أهل خصب ونعمة وقيل عند

رجل من بني النجار من البهامة فقال جرير :

تكفني معيشه آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب

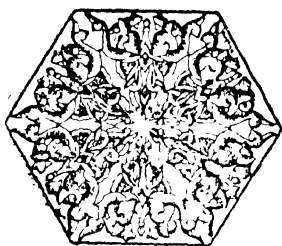
تقول ألا نضم كضم زيد وما ضمي وليس معي شباي

جرير طول مقامه بالمدينة حين يقدمها يكرم أشعب ويكسوه
من حلل الملوك .

أضف إلى هذا أنه كان يوصي ابنه حذرة بتقيل طريقته ، والسير
على منهاجه في المنطق والحزم والسبق والشرف والكرم ويقول له :
يا حذر أشبه منطقي وأجلادك وكراني الأمر بعد الإيراد
وعدوتي في أول الجمع العاد وحسي عند بقايا الأزواد
وحبي الضيف إلى جنب الزاد

ولا يعقل أن يشير البخيل على ابنه بالكرم ، وقد رأينا
البخلاء يألمون لا ينفق الغرباء ؛

فما أبعد البخل من طبع جرير ، وما أبعد طبعه من البخل .



من أساطير الأولين

في أبنا العربي القديم أساطير حاكها بعض الرواة حينما رأوا
الناس مولعين بالغريب ، شغفين بالخيال البعيد ، وهي لا تمت إلى
الحقيقة بسبب ، ولا إلى المعقول في شيء ، إلا أنها كانت فيما يظهر
مستساغة في كثير من الأذواق يتناقلها المتحدثون في لذة وشوق ،
فإذا هي حديث السامر ، ومتمعة النفس ، وبلغة الهوى .

ولقد نقلت إلينا كآثار تاريخية قديمة ، تدل على سذاجة
المعتقدين بها ، وبساطة المتحدثين عنها .

وأحاديث الغول والعنقاء معروفة ، في الأدب القديم ، لا يقرها
العقل اليوم ، ولا تقوى على الظهور أمام العلم في هذا العصر الذي
استفاضت فيه مذاهب الشك والمعرفة ، توصلنا إلى العلم اليقين .
ومن أشباه تلك الأحاديث أساطير تتعلق بشاعرنا منها ما يمكن
أن يعلل ، ومنها ما لا نعلله ، ويسهل علينا رده .

ولقد مر بك أن جريراً هجا الراعي بقصيدته الدامغة ولما
بلغ قوله : « بها برص بجانب اسكتيها »

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنقه فقال : جرير « كعنقة
 الفرزدق حين شابا » فقد انتبه جرير إلى عنقة الفرزدق فقال
 هذا المصرع مرتجلاً ، وهو أيسر تعليل له ويؤيده قول يونس في
 ذلك . ويصح هذا في توارد الحواطر ولكن الذي نحدثك به ، بعد ،
 لا نعتقد أن له وجهاً من الصحة ، فقد زعم أبو عبيدة أن راكباً
 أقبل من اليمامة فر بالفرزدق وهو جالس في المربد فقال له من أين
 أقبلت فقال واليمامة فقال هل رأيت ابن المراغة ؟ قال : نعم قال :
 فأني شيء أحدث بعدي فأنشده :

هاج الهوى لفؤادك المهتاج

فقال الفرزدق : فانظر بتوضيح باكر الأحداج
 فأنشده الرجل : هذا هوى شغف الفؤاد مبرح
 فقال الفرزدق : ونوى تقاذف غير ذات خلاج
 فأنشده الرجل : إن الغراب بما كرهت لمولع
 فقال الفرزدق : بنوى الأحبة إدائم التشحاج
 فقال الرجل هكذا والله . . أفسمعتها من غيري ؟ قال : لا

ولكن هكذا ينبغي أن يقال ، أو ما علمت أن شيطاننا واحد
ثم قال أمدح بها الحجاج ؟
قال : نعم ، قال : إياه أراد .

فنحن لا نوؤمن بهذا ، ولو صح ، لجاز أن يقال إن الفرزدق
كان يعرف كل ما سيهجو به جرير من النقائص ، ولجاز أن
يقال هذا عن جرير ، وهو خطأ وضلال .

ويلحق بهذا قصة ثانية زعموا فيها أن جريراً قال بالكوفة :
لقد قادني من حب ماوية الهوى وما كنت ألقى للحبية أقودا
أحب ترى نجد وبالغور حاجة فغار الهوى يا عبد قيس وأنجدا
أقول له : يا عبد قيس صباية بأي ترى مستوقد النار أوقدا
فقال : أرى ناراً يشب وقودها بحيث استفاض الجزع شبحا وغرقدا
فأعجبت الناس وتناشدوها ، وقال جرير للناس أعجبتكم هذه
الآيات قالوا نعم قال كأنكم بابين القين وقد قال :

أعد نظراً يا عبد قيس لعلماء أضأت لك النار الحمار المقيدا
فلم يلبثوا أن جاءهم قول الفرزدق هذا البيت وبعده :

حمار بمروات السحامة قاربت وظيفه حول البيت حتى ترددا
كليبية لم يجعل الله حولها كريما ولم يسنح بها الطير أسعدا

فتناشدها الناس فقال الفرزدق كأنكم بابين المراغة قال :
وما عبت من نار أضاء وقودها فراس وبسطام بن قيس مقيدا
فإذا بالبيت قد جاء لجرير ومعه :
وأوقدت بالسيدان ناراً دليلاً وأشهدت من سوءات جعثن مشهداً
والتكلف في كل ذلك ظاهر بين .

ولهذه القصص أشباه ونظائر لا نطيل بها ، ونشير بعد ، إلى
شيطان جرير ، فقد زعم بأنه كان « شيطانا راقياً » وقيل إنه
نفس شيطان الفرزدق ، وقيل إن جريراً لم يكن يستطيع أن
يقول شيئاً من الشعر إن لم يعنه الشيطان .

وأنت تذكر أن بشر بن مروان أرسل أبيات سراقه البارقي
التي بفضل فيها الفرزدق ، إلى جرير ، وطلب إلى الرسول ألا
يبرح حتى يجيب عن الشعر .

فأخذ جرير القصيدة ومكث ليلة يجتهد أن يقول شيئاً فلا
يمكنه فهتف به صاحبه من الجن من زاوية البيت فقال له :
أزعمت أنك تقول الشعر ما هو إلا أن غبت عنك ليلة حتى لم
تحسن أن تقول شيئاً فهلاً قلت :

يا بشر حق لوجهك التبشير هلا قضيت لنا وأنت أمير

فقال له جرير : حسبك كفيتك . . . الخ

وحديث الجن في الشعر مستفيض ، والشعراء يفخرون
بشياطينهم ، وما هي بشياطين ، إنما هي رثيات من الخيال ، وإلهام
من القريحة ، يتمثل للشاعر كأنه يدفعه إلى القول ، ويغريه به
وهذه الأسطورة ليست وفقاً على الشعراء العرب وحدهم ،
ففي الشعر الأجنبي شبه ذلك ، والشعراء دائماً عبيد الخيال في كل
صقع وفي كل أمة ، وهذه الرثيات التي تتمثل لهم بصور شتى
كالقريحة المتكلمة ، أو إلهة الشعر ، أو الشيطان ، هذه
هي التي تغويهم بما تفتح أمامهم من مغاليق الخيال ومعميات
الأفكار ، فيقولون ، ويهيمون ، وتكثر أقوالهم ، ويكثر الغواية
معهم ، وصدق الله العظيم : والشعراء يتبعهم الغاؤون إنهم في كل
وادٍ يهيمون . . .



أحكام ودعاويه

عرفت ما كان من شهرة جرير ، وكيف ترامت إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وكيف أخذ الناس يفضلونه على خصميه أو يفضلون أحدهم على صاحبيه ؛

ولكن جريراً لم يقنع بتحدث الناس عنه ، وكان في أحاديثهم ما يرضيه كثيراً ، وكان فيها ما يسوؤه أيضاً ، وإنما عمد إلى تفضيل نفسه ، وإلى إدعاء عريض في الشعر ، قد يستساغ لولا هذا التمدح في التهديد والوعيد .

إنا لنعجب بالمجودين ، ونحب أن نطلع على أماكن الإجابة فيما صنعوا ، ولكننا نقف في شيء من النفرة حينما يأخذ بيدنا المحسن فيرينا أماكن إحسانه ويقول دونكم ما صنعت ، وما أصنع ، وما لا يحسن سواي أن يصنعه ، وننفر أكثر من ذلك إذا سمعنا وعيداً وتهديداً وإبراقاً وإرعادا ، في سبيل إظهار المرء حسنات نفسه .

ويخفف من هذه النفرة ، شدة إعجابنا ، وتقديرنا ومحبتنا ،

فإذا أُعجبنا بالصانع المجيد ، وإذا قدرنا له حسن صنعه وإذا محضناه
الحبة ، ابتسمنا حينما يتحدث عن نفسه ، وأصغينا لحديثه في كثير
من الإنصات والاستزادة واللذة ؛

وجرير لا يفرق عما ضربنا من المثل في شيء ، فهو يشير إلى
عبقريته ، ويتحدث عن تفوقه ، ويدل على مواطن أجادته ثم هو
يقول لك إني هدمت وهدمت ، وبنيت وبنيت ، ثم لم أجد عند
القيم بناءً أهدمه أو مجداً أضعه ، ثم هو لا يقف عند هذا بل يحكم
على الناس بما يختار وبما يدلّه عليه هواه وطبعه ، لا يهاب في حكمه
ولا يماري ، وإنه لعذب بعد ذلك - على ما نعتقد - أن نصغي
إليه في أحكامه على نفسه ، وعلى سواه من الشعراء ، وستجد شيئاً
كثيراً من اللذة إن كنت معجباً به تمحضه المحبة والتقدير ، وقد
لا تجد ذلك إن كنت من أرباب النفرة الشديدة من الادعاء .

كان جرير عند الوليد بن عبد الملك ^(١) فسأله من أشعر الناس
فقال ابن العشرين (يعني طرفة) قال فما رأيك في بني أبي سلمى

(١) لا عبد الملك بن مروان - كما شك صاحب الأغاني - لأن
الشاعر يشير الى موت الاخطل في هذا الحكم وقد مات الاخطل سنة ٩٢ هـ
ومات عبد الملك سنة ٨٦ هـ ؛

قال : كان شعرهما نيراً يا أمير المؤمنين ، قال فما تقول في امرئ القيس ، قال اتخذ الخبيث الشعر نعلين ، وأقسم بالله لو أدركته لرفعت ذلّاه ، قال : فما تقول في ذي الرمة ؟ قال : قدر من طريف الشعر وغريبه وحسنه ما لم يقدر عليه أحد ؛ قال : فما تقول في الأخطل ؟ قال ما أخرج لسان ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات ؛ قال : فما تقول في الفرزدق ؟ قال : في يده والله يا أمير المؤمنين نبعة الشعر قد قبض عليها ؛ قال : ما أراك أبقيت لنفسك شيئاً ! قال : بلى والله يا أمير المؤمنين إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود ، نسبت فاطربت ، وهجوت فأرديت ، ومدحت فسنيت ، وارعلت فاغزرت ، وزجرت فأبحرت ، فأنا قلب ضروب الشعر كلّها وكل واحد منهم قال نوعاً منها . قال الخليفة صدقت .

وقال عكرمة بن جرير لأبيه يَأْبَتِ من أشعر الناس : فقال الجاهلية تريد أم الإسلام ؟ فقال عكرمة : قلت : أخبرني عن الجاهلية ؟ قال شاعر الجاهلية : زهير . قلت فالإسلام قال : نبعة الشعر : الفرزدق . قلت : فالأخطل . قال : يجيد صفة الملوك ويصيب نعت الخمر قلب فما تركت لنفسك ؟

قال دعني فأني بمرت الشعر بمرّاً .

وسئل جرير عن نفسه وعن خصميه أيهم أشعر فقال أما الفرزدق
فيتكلف مني مالا يطيقه ، وأما الأخطل فأشدنا اجتراء وأرمانا
للغرض ^(١) وأما أنا فمدينة الشعر .

وسأل جرير رجلاً : أيما أشعر ، أنا أم الفرزدق فقال له أنت
عند العامة والفرزدق عند العلماء .

فصاح جرير أنا أبو حذرة غلبته ورب الكعبة والله ما في
كل مائة رجل عالم واحد .

ولقد سقنا إليك هذه الأحكام ، على ما فيها ، لتعلم أن
الرجل كان ينصف خصومه في بعض الأحيان ، ولكنه لم يكن
لينسى أن يعزو الفضل الأكبر ، والفالج إلى نفسه .



(١) وفي روايه ثانية : وأما الأخطل فأنعتنا للخمر وأمدحنا للملوك .

من صفوة الأحكام

علمت مما سلف أن جريراً كان يرى في شعره رأياً ، قد يكون مصيباً فيه ، وقد يكون مخطئاً ، ولا مجال هنا لتفنيد كل رأي له ، إنما الحق أن ندلي برأينا مستقلاً مستنداً إلى دراسة شعره وحياته ، وهو ما سنحدثك عنه في فصل يلي .

ونرى ألا نخلص إلى آراء العلماء فيه قبل أن نقرر أن الرجل كان ينصف نفسه أحياناً ، لأنه بها عليم ، وكان ينصف خصومه تارةً ، لأنه عالم بموارد الشعر ومصادره ، ولكن إنصافه بوجهيه لم يكن كل الإنصاف ، فهو إلى عصبية النفس أميل ، وهو عن اطراح عداوة الخصوم أبعد ، فكان من هذا وذاك أن رجح جانب نفسه ، وغمط حق خصومه ، ولو قليلاً .

والناس في عصره — بل في كل عصر — لم يخلصوا من عامل العصبية ، والمحبة والإعجاب ، وكل هذا ، بل شيء منه ، لا يجعل للرأي المتأثر قيمته التي لا يأتيا الباطل ، ولا يخطئها الصواب . ومن اختلاف الناس في العصبية والمحبة والإعجاب نرى هذه

الآراء التي ينقض بعضها بعضاً في بعض الأحيان على أنا ستتخير لك من الآراء أقواها سنداً ، أو أحسنها فكراً ، أو ألصقها بالحقيقة ، أو أكثرها انتشاراً ، لصدورها عن راوية كبير أو ثقة من أعلام أدبنا ، ولعلنا نتجاوز ذلك لغرض لا يخفى عليك .

فأما شيخ الأدباء الأصبهاني فيقول : « إن جريراً والفرزدق والأخطل هم المقدمون على شعراء الإسلام »^(١) . ومختلف في أيهم المتقدم ولم يبق أحد من شعراء عصرهم إلا تعرض لهم فافتضح وسقط ، وبقوا يتصاولون ، على أن الأخطل إنما دخل بين جرير والفرزدق في آخر أمرهما وقد أسن ونفذ أكثر عمره وهو وإن كان له فضل وتقدم فليس نجده من نجار هذين في شيء . . . »

وقال أبو عبيدة ومحمد بن سلام ووافقهما الأصمعي . . . إنه اتفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثة (وذكرهم) .

قال محمد بن سلام والراعي معهم في طبقتهم ولكنه آخرهم والمخالف في ذلك قليل .

وكان يونس يقول ما شهدت مشهداً قط ذكر فيه جرير والفرزدق فاجتمع أهل المجلس على أحدهما .

(١) غالباً ما يرد بشعراء الإسلام شعراء بني أمية الأولون .

وفي قول يونس اعتراف ضمني بتقدم جرير لأن يونس كان
فرزدقياً .

وقال ابن دأب : الفرزدق أشعر عامة ، وجرير أشعر
خاصة ، وكان أبو عمرو يشبه جريراً بالأعشى والفرزدق بزهير ،
والأخطل بالنابغة .

وقال أبو عبيدة : يحتاج من قدم جريراً بأنه كان أكثرهم
فنون شعر وأسهلهم لفظاً ، وأقلهم تكلفاً ، وأرقهم نسيباً ، وكان
دينياً عفيفاً - وما نرى وجهاً للتحدث عن الدين في الناحية الفنية .
قال عامر بن عبد الملك المسعبي شيخ بكر بن وائل : كان
جرير والله أسبهاً^(١) وأنسبها وأشبهها . وفضل خالد بن كلثوم جريراً
والفرزدق لأن الفرزدق مدح قبيلتين وهجا قبيلتين في بيت واحد
ولأن جريراً هجا أربعة في بيت واحد .
قال الفرزدق :

عجبت لعجل إذ تهاجي عبيدها^(٢) كما آل يربوع هجوا آل دارم

(١) في الأصل (أسبها) ولا وجه لها إلا ما ذكرنا .

(٢) يربد بني حنيفة .

وقال جرير :

إن الفرزدق والبعيث وأمه وأبا البعيث لشر ما إِستار^(١)

وقال العلاء بن جرير العنبري وكان شيخاً قد جالس الناس :

إذا لم يجيئ الأخطل سابقاً فهو سكيت ، والفرزدق إذا لم يجيئ سابقاً ولا سكيتاً فهو بمنزلة المصلي وجرير يجيئ سابقاً ومصلياً وسكيتاً .

قال ابن سلام وتأويل هذا : إن للأخطل خمساً أو ستاً أو سبعة طوالاً روائع غرراً جيداً هو بهن سابق وسائر شعره دون أشعارهما ، فهو فيما بقي بمنزلة السكيت - والسكيت آخر الخيل في الرهان .

الفرزدق دونه في هذه الروائع وفوقه في بقية شعره فهو كالمصلي أبداً - وهو الذي يجيئ بعد السابق وقبل السكيت .

وجرير له روائع هو بهن سابق ، وأوساط هو بهن مصلي وسفسافات هو بهن سكيت .

ورأى محمد بن سلام أعرابياً أعجبه ظرفه فسأله عن أشعر العرب فقال يوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب وفي كلها أغلب جرير . قال في الفخر .

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضاباً

(١) الإِستار من العدد أربعة .

وفي المديح قوله :

أَلستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وفي الهجاء قوله .

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي النسيب قوله :

إن العيون التي في طرفها حور قتلتنا ثم لم يحين قتلانا

قال ابن سلام وببت النسيب عندي :

فلما التقى الحيان أُلقيت العصا ومات الهوى لما أُصِبت مقاتله

وقال الفرزدق : إني وإياه لنغترف من بحر واحد ، وتضطرب

دلاؤه عند طول النهر ، وقال مرة : قاتله الله فما أخشن ناحيته ،

وأشرد قافيته ، والله لو تركوه لأبكي العجوز على شبابها ، والشابة

على أحبابها ، ولكنهم هزوه فوجدوه عند المهراش نابجاً ، وعند

الجراء فارحاً ، ولقد قال بيتاً لأن أكون قتلته أحب إلي مما طلعت

عليه الشمس :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وسمى مرة في المدينة قينة تغني بشعر جرير فأعجبه فقبل له

إنه لجرير يهجوك : فقال ويل ابن المراغة ما كان أحوجه مع

عفافه إلى صلابة شعري ، وأحوجني مع شهواتي إلى رقة شعره .
وعن ابن هبيرة : كان جرير ميدان الشعر ، من لم يجر فيه لم
يرو شيئاً ، وكان من هاجي جريراً فغلبه جرير ، يرجح عندهم من
هاجي شاعراً آخر غير جرير فغلب :

وسأل ابن سلام بشاراً أي الثلاثة أشعر فقال لم يكن الأخطل
مثلها ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه ، وكان لجرير ضروب
من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد مات النوار (امرأة الفرزدق)
فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير .

وقال الأخوص وكان فرزدقياً إن الفرزدق لأشعر منه وأشرف
وكان راعي الأبل يقضي للفرزدق على جرير ،

وكان الخوارج يفضلون جريراً على الفرزدق لدينه

وقال مسعود بن بشر لابن منذر بمكة : من أشعر الناس ؟

قال : من إذا لعب شبيب ، فإذا لعب أطمعك لعبه فيه ، وإذا

رمته بعد عليك ، وإذا جدّ فيما قصد له أياً سك من نفسه مثل
جرير حين يقول إذا لعب :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك ما يزال معينا

ثم قال حين جدّ :

إن الذي حرم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا آل تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا^(١)
وقال محمد بن شرف القيرواني مشيراً إلى رفته وحلاوته في
غزله ، وجزالته في نقائضه وأهاجيه وأماديحه ، متحدثاً عن أسلوبه
الذي يبدأ بالسهولة وينتهي بالحزالة ، شارحاً نفسيته وجراته ...
وأما ابن الخطمي فزهري غزل ، وحجري جدل ، يسبح أولاً في
ماء عذب ، ويطمح آخرأ في صخر صلب ، كلب مناجحه ، وكيس
مناطحه ، لا يفيل عذب لسانه مطاولة الكفاح ولا تدمي هامته
مداومة النطاج ، جاري السوابق بمطية ، وفاخر غالباً بعطية ،
وبلّغته بلاغته إلى المساواة ، وحملته جراته على المجارة «وحدث
الصولي قال حدثنا الغوث بين البحري الشاعر : سألتني أبي يوماً
من أفضل عندك جرير أم الفرزدق .

قال الغوث : فقلت في نفسي : ملك جرير بملك أبي

(١) لما بلغ عبد الملك هذا قال ما زاد ابن المراجعة أن جماني شرطياً
أما إنه لو قال : لو شاء ساقكم إلى قطينا لسقتم إليهم إليه كما قال .

أشبهه فقلت له: أَفْضِلْ جَرِيرًا ، فقال : (البحتري) : ما صنع
مِيزُكَ شَيْئًا ؛ قلتُ : وَلِمَ ؟ أليس جرير يشبه طريقتك ، قال
أَوْفِي المِيزْحِيَّةِ أَوْفِي الحق عصبية ؟ قلت فيم تفضل الفرزدق ؟
قال لأني رأيت جريراً لا يهجو بأكثر من خمسة أشياء
يكرّرها : القيون ، وحرأخته ، والزنا ، ونفي عمر بن عبد العزيز
له من المسجد ، وضربه الرومي

ورأيت الفرزدق لا يخلو في كل قصيدة له من أن يرميه
بسهام شتى غير مكررة ولا معادة وفي هذا من الفضل ما لا يخفى ؛
وهذا الرأي الذي حكم به البحتري لم يعجب محمد بن شرف
القيرواني فقال :

« ولو حضرت هذا المجلس لوقفت البحتري على ما جهله ،
ونبهته على ما أغفله ، وذلك أن كليب بن يربوع وهي قبيلة جرير
لا توازي في الشرف دارماً وهي قبيلة الفرزدق ، لغالب ، فناضله
جرير مناضلة المساواة ثلاثين عاماً ، وإذا تناصف في المكافحة
قرنان ؛ سيف أحدهما حسام ، وسيف الآخر كهام ، فصاحب
الكهام أصدق مصاعاً ، وأطول باعاً ، وإنك لم يفخر عليك
كفأخر ، ولم يغلبك مثل مغلب »

وحكى أبو عمرو بن العلاء قال كنت عند جرير أقرأ عليه من شعره حتى قام على رجليه وتلقى رجلاً بكفا يديه، ونظرت إلى الرجل فرأيت أسود دميماً، كأنه جعل يسوق أعناقاً فعجبت من انحطاط جرير لمثله فقلت يا أبا حذرة من هذا الذي أجلته هذا الاجلال؟ فتبسم وقال: هذا عطية بن عوف الخطفي، وإن امرأ ناضل بهذا بني دارم كذا وكذا سنة فما نضلوه، لشاعر.

قال أبو عمرو: فلما عرفت أنه والده استحييت

وحكم الصلتان العبدى بين جرير والفرزدق فقال:

أرى الخطفي^(١) بذالفرزدق شعره ولكن خيراً من كليب مجاشع
 فيا شاعراً لا شاعر اليوم مثله جرير ولكن في كليب تواضع
 ويرفع من شأن الفرزدق أنه له باذخ من ذي الحسيصة رافع
 يناشدني النصر الفرزدق بعدما أناخت عليه من جرير صواقع
 فقلت له إني ونصر ككذي يثبت أنفاً هشمته الجوادع
 ويقول المرزباني: أكثر أهل العلم يقدمون الفرزدق على جرير
 ويقول ابن خلكان: الأكثرون على أن جريراً أشعر من الفرزدق
 وقال أبو عبيدة: «أما الرواة فيقولون الفرزدق أشعرهما، وأما الشعراء فيقولون جرير أشعرهما، وهذا عندي هو القول»

(١) يعني جريراً .

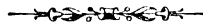
وكان ابو عمرو بن العلاء يشبه جريراً لحسن تشبيهه بالاعشى
وسمع الراعي من يتغنى بقول جرير :

وعاوى عوى من غير شيء رميته بقافية أنفاذا تقطر الدما
فقال لعنة الله على من يلومني أن يغلبني هذا الشاعر .

وفي النقائص : أن جريراً كان أشد الشعراء الهجائين تكرمة ، لم يمدح
أحداً فهجاه ، ولم يهج أحداً قط فمدحه ، والهجاؤون في الإسلام ستة :
المخبل القريعي ، وحسان ، والخطيئة ، والفرزدق ، وجرير والأخطل .
وقضى مروان بن أبي حفصة بين جرير وصاحبيه فقال :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلوا الكلام ومرة لجرير
ولقد هجا فأمض أخطل تغلب وحوى اللهى بمدح المشهور
وقال الأخطل : أنا أمدحهم للملوك وأنعمهم للخمر ، وأما
جرير فأنسبنا وأسهبنا^(١) وأما الفرزدق فأفخرنا .

ومن طريف الأخبار في هذه الأحكام أن أبا مهدي الباهلي
— وكان فيه شيء من المرة — سئل مرة أيما أشعر أجريز أم
الفرزدق ؟ فغضب ثم قال : جرير أشعر العرب كلها ، ثم قال : لا
يزال الشعراء موقوفين يوم القيامة حتى يحكي جرير فيحكم بينهم



(١) لعله وأسبنا .

في مسالك الحياة

يخيل لقارئ جرير أن الرجل كان همه السباب والشتم في الهجاء ، وأنه قصر العمر على ذلك فكيف كان أمره في المشاركة بشؤون الحياة العامة ؟

قد يكون الهجاء والعوامل التي دفعت إليه من عصبية ونفرة - مشاركة في الحياة العامة ، بل هو مشاركة إلى حد بعيد ، ذلك أن الشاعر الذي يرقب ما يقال في قومه ، ثم ينضح عنهم ويدود ، إنما هو شاعر قومي يشارك أبناء جلدته فيما يضطربون به من شؤون الحياة ، وهو بعد ذلك ذورأي في هذه المشاركة ، وقد يكون بهذا الرأي منفرداً ، وقد يكون متفقاً به وسواه ، وعلى هذا تستطيع أن تقرر أن جريراً كان شاعراً قومياً عصبياً شارك قومه في عصبته وفي شؤون حياتهم بمقياس لم يعرف من قبل . وكذلك تقول في خصمه وابن عمه الفرزدق ، فإن الرجلين كانا يتسابان وهما فرعان من تميم ، فإذا حشر نفسه بينهما شاعر كلبن لجأ مثلاً رأيت أنفة الخصمين أن يتعلق بأحدهما دخيل ،

وتكبر هذه العصبية من الفرزدق حينما يخاطب ابن لجأ بقوله .
وما أنت إن قرما تميم تساميا أخا التميم إلا كالوشیطة فی العظم
وترى مشاركة شاعرنا فی الحياة العامة مما یتصل بحیاته من
قصص وشعر ، وإذا لم یکن هذا الشاعر مشارکاً فی الحياة العامة
فكيف تكون المشاركة ؟

لقد اضطرب فی الحياة كل مضطرب ، وعاشر الطبقات علی
اختلافها ، ولن نستطیع أن نتخیل بيئة عربية أمویة لم یلابسها
شاعرنا ولم یکن له رأي فیها ، إلا ما ندر .

فلقد عرف حياة البادية الحشنة ، وعیشة الفقر الضنكة ، كما
عرف حياة الحضر اللينة ، وعیشة الغنى الرحبة ، وتقلب فی اعطاف
هذه الحياة عسراً ویسراً ، وشقاء وفرحاً فذاق كل ذلك ، وانطلق
لسانه فیه .

وعرف ألوان الحياة وأخذ من كل بنصیب ، فهو تارة حاج
تقی ورع : إذا قال له الفرزدق فی الحج :

فإني لاقٍ بالمنازل من منى نخراً تخبرني بمن أنت فاحر
لم یفخر بغير التقوى ولم یجبه بغير قوله « لبيك اللهم لبيك »
إذ يرى فی هذه التقوى أفضل نخر وأرجحه .

وهو طوراً شتّام سبّاب يهتك الأعراض ويرمي الحصنات ،
ثم يستغفر من ذنبه .

وهو آناً مجاهد غاز في عسكر الخليفة سليمان او غيره ، وهو
آناً آخر مرفّة عليه في العيش يلبس الخز ولا يتجشّم مشقة القتال ،
ولا نزال الأقران .

وهكذا تجد جريراً في سائر أبواب الحياة ، رجلاً عملياً يأخذ
نفسه بما يأخذ الناس به أنفسهم ، ثم ينطلق لسانه فيصور لك البيئة
العربية أفضل تصوير وأصدق ، ويحمل إليك قصصاً فنياً تكاد تفنى
فيه شخصية الشاعر ليعطيك صورة عن المحيط والجماعة التي يتحدث
عنها ، وهذا عنصر كبير من أهم عناصر الشعر القصصي كما
ترى في الإلياذة أو الأوديسا اليونانيتين .

وأنت حين تقرأ الصور الفنية التي يحملها إليك جرير تشعر
كأنك تعيش عيشة الأولين ، فتلمس حياتهم ، وتسمع أحاديثهم ،
وتشعر بشعورهم فتكبر هذه القدرة على الإيالة والتصوير .



نزعت السياسية

رأيت في الكلام على اتصال جرير بعبد الملك أن الخليفة
الأموي لم يسمح للشاعر أن ينشده مديحه إلا بعد جهد
ومشقة واستعطاف .

ذلك أن جريراً كان ذا عصبية مضرية ، وكان شعراء مضر
يمالئون ابن الزبير على عبد الملك ، وما كان تمنع عبد الملك عن
قبول جرير في عداة شعرائه المداحين إلا استتابةً لجرير وعقاباً له
على عصبية المضرية .

وإذا ذكرت ما تأجج في عصر بني أمية من عصبية القيسية
والقحطانية ، وأن عدي ابن الرقاع شاعر عبد الملك كان
قحطانياً ، عرفت السر الذي قرب عدياً من الخليفة ، والداعي لهجاء
جرير لعدي ، وتعرضه إليه ، بله ما كان من تحزب الشعراء ، حتى
أن جريراً كان يجلس إلى رجل من أهل اليمن قريب من عدي
ينشده ما قال الشعراء في مذمة اليمنية إغاظه للرجلين ، وبخاصة
عدي بن الرقاع .

ولكن جريراً كان في حاجة إلى الغني والسعة ، ورغد العيش ،
وطيب الملبس والمأكل ، وكل ذلك لا يناله بعصبيته الأولى ،
فمال إلى رجال بني أمية ، وإلى أمراءهم ثم اتصل بخلفائهم كما رأيت
من قبل ، فأغدقوا عليه نعمتهم ، وانطق لسانه في مديحهم .

وترى هذه الزلفى والتعجب إليهم في قصائده جليلة ، حتى
أنه لم يكن لينورع عن التعريض بالأموال شماتةً واسترضاءً ،
وماذا بعد هذا اللؤم في التعريض بابن الزبير وقد أصبح رمياً
حينما مدح عبد الملك فقال :

دعوت الملحين أبا خبيب جاحاً ، هل شفيت من الجاح ؟
وان مما يطرب له الملك الظافر أن يعرض بخصمه الهالك
فيقال إنه كان في ضلالة حملته على العناد حتى هلك .

ولعل مما زاد في إعجاب عبد الملك هذا الاستفهام في قوله
المتقدم ، وما أعقبه من مقارنة بين المغلوب والغالب ، وإن ما تحدث
به الشاعر عن الخليفة في تلك القصيدة - التي قيل إن فيها أمدح
بيت قالته العرب - دليل على ميل الرجل إلى أرباب السطوة والغنى
من بني أمية ، وبذلك يظهر أثر التكسب بشعره من ناحية ،
وأثر عصبيته المضرية من ناحية ثانية .

أما مدائحه في بني أمية فكانت تقوم على تعظيم شأنهم والهم
من خطر في الحياة الدينية والدنيوية ، فهم الذين اختارهم الله
لخلافة مقام الرسالة ، وهم الذين ينسبون إلى الفرع النبيل من
قريش ، وهم الذين أثبتت الأيام والأحداث أنهم أهل للخلافة
والسلطان .

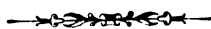
بمثل هذه المعاني كان الشاعر يمدح خلفاء بني أمية ، وأكثر
ما تظهر الفكرة الدينية في مدائحه ، ففي قصائده التي ذكر بها
عمر بن عبد العزيز لما كان بقتضيه المقام من مقال ، ولأن نفس
الرجلين كانتا تتلاقيان في سماء واحدة من العفاف والتقوى ،
وبهذا كان جرير أقرب الشعراء من عمر ، وآثرهم عنده .

وأما موقفه من الحركة الشعبية التي كانت تذر قرنهما في
العهد الأموي ، فيظهر أنه لم يكن فيها معادياً أو مناوئاً ، لضعف
هذه الحركة أولاً بالنسبة لقوتها في العصر العباسي ، ولأن
شاعرنا كان ديناً ؛ ولعله كان قانعاً بظاهر هذه الدعوة الخلاب ،
لأنك تعلم أن أول قيامها كان في تأييد المساواة بين العرب والفرس
بقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ، وجرير لم
يحجم عن العطف على الموالي من الفرس ، حتى قيل إنه حينما قدم

دمشق ، وافداً على الوليد بن عبد الملك ، وقدمها الفرزدق وافداً
أيضاً ، دخل كلاهما مسجد دمشق ، فأما الفرزدق فلم يكن يطيف
به إلا نفر قليل من خندف ، وأما جرير فكان الناس عنقاً
واحداً عليه ، وكلهم من قریش ومواليها ، يسلمون عليه ويسألونه
عن مسيره وأهله وأسبابه ، وقد وافته في ذلك اليوم مائة حلة ،
أهداها إليه الموالي بنو الأحرار من العجم لمدحه قيساً وقوله
في الفرس :

فيجمعنا والغر أولاد سادة أب لا يبالى بعده من تعذرا

وبعد فإذا ضمت هذا الفصل إلى ما تقدم من خبره ، وإلى
ما ستعلم من شعره ، تبينت هذا البدوي الشاعر ، ذا العصبية الثائرة ،
وعرفت أنه مصور لبيئته وعصره ، مشارك لقومه في شؤنهم ،
وعرفت أنه كان بانقطاعه إلى هذا التصوير الناطق ، وإلى الهجاء
السياسي القومي ، وإلى هذه العصبية القبلية مع حسن الأداء وتنوع
آفاق - كان أمةً وحده ، وكان نطاً جديداً في الشعراء لم يعرفه
التاريخ الأدبي من قبل بهذا المقياس الواسع .



زعم الدينية

اتفقت الكلمة على اعتصام جرير بالعروة الوثقى ، والتزامه سبل الدين ، فلم يكن يأتي من المحرمات شيئاً ، وكانت فكرة الدين لا تكاد تغادر مخيلته في سائر أغراضه الشعرية ، فهو إن تغزل أو مدح أو هجا أو رثى ، ذلك على نفسه المتدينة ، ولم ينس أنه مسلم ، يستطيع أن يستمد من معاني الإسلام وأساليبه وألفاظه ما يتفق وما هو فيه ، فإذا عرض للأخطال عاب عليه نصرانيته ، وما يتبعها من شعائر ومراسم وأحوال ، كشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وإذا هجا الفرزدق ذكر أنه فاسق يأتي المحرمات ، ويعين الأخطال لخروجه على الإسلام ، وأنه تارة مع اليهود ، وطوراً مع النصارى ، وأنه أخرج من المدينة لضعف عقيدته ، وفساد طويته .

وإذا مدح الخليفة خاطبه أنه ظل الله في أرضه ، والمرجو للإقامة شعائر دينه ، وأنه زين المنبر والحجر .

وإذا تغزل تحدث بالمغفرة ، والجزاء ، والرحمة ، وما أشبه ،

وإذا رثى أشار إلى الأجر ، والثواب ، والصلاة ، والاستغفار ،
وغيره ، فهو في كل ذلك لا يكدر يفلت من الفكرة الإسلامية
وما تستتبعه من لفظ ومعنى وأسلوب .

ولو لا ذلك الفحش في القول ، وانتهاك الحرمات كذباً وبهتاناً ،
ولولا هذه السلاطة والقحة لكان الشاعر الورع التقيّ .

وقد كان يعلم جرير من نفسه أنه يفترى الكذب ، وينتهك
الحرمة ، فكان إذا أنشد شعره أحداً ، وذكر ما ذكر ، أعقبه
باستغفار وتسبيح ، بإرادة أو بغير إرادة ، لأن ضميره كان
يربأ به ألا يستغفر مما اقترف ، ولأنه كان يرى أنه مهاجم
محتاج للدفاع عن نفسه ، والذود عن حياضه بسلاح يماثل السلاح
الذي هوجم به ، ولكنه كان أحداً وأمضى .

وأما ما يمكن أن يؤخذ على نقواه من شرب النبيذ ، فقد
ذهبت طائفة إلى أن ذلك الشراب لم يكن ما نعرفه اليوم ، وإنما
كان نوعاً من الشراب الحلال ، لا يسكر كثيره ، ويلذ قليله ،
يصنع من التمر دون اختار ، وقد أحله كثير من الأئمة المتقدمين ،
وشربه الخلفاء المتدينون ، وصنعه بعض الفقهاء كالذي قالوه عن أبي
يوسف انه كان يصنع النبيذ للرشد ، وكان حلالاً ، وهو على

التحقيق ليس كمثل النبيذ المصنوع في هذه الأيام .
وبذلك لا نرى في الشراب الذي كان يشربه جرير ما يثلّم به
عفته وثقواه ،

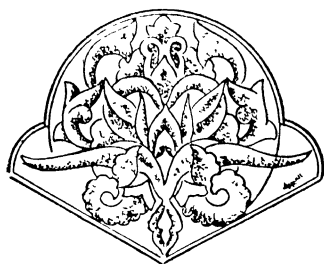
وإنه لطريف بعد هذا أن نسمع الفرزدق يقول لجرير وهما
حاجان في منى :

فإنك لاقٍ بال منازل من منى فخاراً فخبّرني بمن أنت فاخر

فيقول جرير : « لبيك اللهم لبيك »

وهذا الفخار بالتلبية أثر من امتلاء نفس الشاعر بامتقوى ،

وإنه لجواب ، فيه ما فيه من حلاوة ولطف .



الشاعر
میری

دراستہ اشعار
میری

دراسة أشعاره

عقريته : الهجاء . الغزل . الرثاء . الفخر . المديح . الوصف

معانيه : تشارك الشعراء في بعض المعاني المادية في شعره . أثر

الحواس والمادة في التشابه والاستعارات . خياله . سهولته ويسره .

التهديب والصقل . الروح المتقدة الشديدة . أثر عصبية .

أثر إسلاميته . وضوحه . لينه . قوته . ألفاظه الإسلامية .

ترديده . مماشة الطريقة القديمة . تجديده في الطريقة . اقتضابه .

وحدة البيت والقصيد . أوزانه . قوافيه . صنعته البديعية .

الشواهد من شعره . اختلاف الأحكام باختلاف الأزمان .

أمثلة مختلفة الخ . بعض ما أخذ عليه .

مصادر البحث : ديوانه وسواه .

عبقريته

ولد جرير مطبوعاً على الشعر ، ونشأ في بيئة أغرته بالشعر وعاش والشعر محيط به أيما إحاطة ؛ فهو إن خلس من تأثير عامل يحفزه على القريض ، لم ينبجُ من تأثير عوامل تدعوه إليه ملحمة كل الإلحاح .

وأنت إذا شئت أن تعيد عبقريته إلى مصادرها الأولى وجب أن تتبين دخيلته وسجاياه ، وأن تدرس هذه النفسية المتوقدة الإحساس ، وما كان لها من تأثير في خصب عبقريته .

كان جرير أعرابياً ، فيه نعة الجاهلية وعصبيتها ، ولم تكن وفادته على الملوك والأمراء في الحضر لتخفف من أثر تلك الحدة الثائرة ، وما لنا نحاسبه على هذا ، والأمة العربية لم تنج - أيام بني أمية - من عصبيتها وجاهليتها الجاهلاء . وإذا كان الإسلام قد استطاع أن ينشر بينهم لواء الحق ، فإنه لم يستطع أن يغير من نفوسهم الثائرة ، وعصبيتهم الجامحة الا قليلاً ، وإلا فما هذه القيسية واليمينية

وما هذه النعرة الجاهلية ، والعصية القبلية التي نَجدها في عصر
بني أمية ؟

والواقع أن تغير هذه النفوس يحتاج إلى زمن ليس بقصير ،
وقد مضى على الأمة العربية ثلاثة عشر قرناً وهي خاضعة لدين
الحرية والمساواة والإخاء ، وما تزال طائفة منها تتعزى بعزاء
الجاهلية وتدعو بدعوتها .

وإذا كانت تنصر الأخ ظالماً فكيف لا تنصره مظلوماً ،
وكيف لا تغضب لكرامتها ، ولا تثور لانتهاك حرمة من حرمتها ؟
وهذا شأن جرير فقد كان سريع الغضب لكرامة قومه ، سريع
النفرة لحرمة قبيله ، يلتجئ إلى لسانه في الغضب إذا ما التجأ
سواه إلى السيف ، فيفعل لسانه ما لا يفعل سيف غيره .

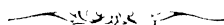
وهذه النفسية الجاهلية تزدان بذكاء حاد ، وبديهة حاضرة ،
وخاطر متوقد ، وهي بهذا عصبية المزاج ، متوثبة الإحساس .

وعصبية مزاج شاعرنا هي سر العظمة في هجائه ، وتوثب
إحساسه هو سر الخلود في غزله ومراثيه .

هاتان الناحيتان هما اللتان نعتقد أن جريراً لم ياحقه بهما
صاحباه الأخطل والفرزدق ، إذ من السمو الذي لا يطاول أن

يقف شاعر يتصدى له ثلاثة وأربعون شاعراً فيرمي بهم واحداً
بعد آخر ، وينشد قصيدة دامغة فيخمد بها جرة من جرات
العرب الشريفة ، وهو بعد كل هذا لا يبالي بما يقوم حوله من
ضجيج ونباح .

ومن الطبع الذي لا يدانى أن ينشد الشاعر في الغزل والرثاء
ما يشير كوامن النفس ، ويحرك سواكن القلب ، وهو مشغول بغير
هذا النوع من القول ، وهو لو ترك لأعاد شرّة الشباب جذعة ،
ولأبكى العجوز على شبابها ، والشابة على أحبابها ، ولاتخذ من
العيون معيناً لا ينضب ، ومن الاضلاع موقداً لا يفتقر ولا يهدأ .



الهجاء

عد إلى هجائه وتبين معانيه التي كان يصبها على رأس خصومه
صباً ، فإنك واجد فيه إفحاشاً وإفذاً قلما يوفق إليهما شاعر
مطبوع ، وستجده ثائراً لكرامته وكرامة قومه ، ذائداً عن حوزتهما .
وستجد قدرة على الشعر لا تتاح لغير من كان في طبقته من
الشعراء ، فهو ما يبرح يحول في ميدان القول ، ويستقصي معائب
من يهجو حتى يأتي على آخرها ، لا يدع مطعناً ماضياً ولا حاضراً
إلا ذكره ، سواء أكان في الجاهلية أم في الإسلام .

فإذا ضاقت الحقائق به عمد إلى الكذب فاخترق ، وما يزال
يأخذ خصومه من كل ناحية ، حتى يملك عليهم الأنفاس ، وهو في
كل ذلك كثير الاعتداد بالنفس ، عظيم الفخر بأجداده الأقدمين ،
على ضعة في الحسب .

وإذا استطاع الفرزدق أن يكون الشاعر العظيم في الفخر ،
وإذا أعين على خصمه بكرم الأرومة ، وشرف المحدث ، فإن
من العظم بمكان أن يوجد جرير لنفسه فخراً بآبائه وأجداده ،
وأن يفخر على خصمه بما لا يستطيع سواه أن يجد فيه دعامة فخر
ومستند عز .

والهجاء عند جرير شديد الصلّة بفخره ، فهو إذا هاجى افتخر
وإذا افتخر أذل خصمه وعيره بما يحصيه عليه ، وبما يختلقه اختلاقاً .
خذ مثلاً لذلك قصيدته اللامية إحدى نقائضه التي ردّها على
الفرزدق والتي يقول في مطلعها :

لمن الديار كأنها لم تحلل بين الكناس وبين طلح الأعزل
فهي إذا تركت ما فيها من الغزل جانباً ، قسماً : فخر ، وهجاء .
فأما الأول فاعتزاز بنفسه ، وإعدادة للشعراء كافة سماً ناقعاً ،
يسقي آخرهم بالكأس التي سقى بها أولهم ، ثم تحدّثه عما بنت له
آباؤه من العز والمكارم ، عن أحلام قومه الرزينة ، وعن
جهل الجاهلين منهم ، وعن قوتهم التي تفوق قوة خصومهم في
الحرب ، ثم عودته إلى عصبيته ومن يشد أزره من قومه ، وما لعشيرته
من فضل وقوة وعز .

وأما القسم الثاني فهجاء للفرزدق والبعيث والأخطل ، فقدوسم
الأول ، وأذل الثاني ، وجدع أنف الثالث في بيت واحد ، ثم هجا
مباشعاً ، ورمى الفرزدق بأن قومه حدادون ، وأن له أخس بيت
وأنه من قوم خفيفة أحلامهم ، أذلة لا يثأرون لقتيلهم ، ثم يهجو
البعيث ويشبهه بالطير الضعيف ، ويشبه نفسه بالأجدل الخفيف

ويعود إلى الفرزدق فينصبُّ عليه كالعذاب من السماء ويأخذه من
علٍّ ، ويحتطفه اختطافاً ويقول :

إني انصبت من السماء عليكم حتى اخمطفتك يا فرزدق من علٍ
ثم ينصح الفرزدق أن يفتخر بأخواله ، لأنهم أشرف من قومه
القيون ، ولقد ألهى أبا الفرزدق على المكارم عمله في الحديد والنار .
هذا مثل من هجاء جرير ، وفخره يقوم على تمجيد نفسه وقومه ،
وإذلال خصمه وعشيرته ، وتكرير بعض الصفات .

وإنك لتستطيع أن تستخلص من سائر هجائه أن جريراً كان
كثير التعداد لنقائص خصمه ، مبالغاً في الزراية والتحقيق ، غير
مبالٍ باختلاق ما يشين ، زائداً في المعائب ما تسمح به قريحته ،
مستقصياً للمخزيات قومية كانت أم شخصية ، ماضية أم حاضرة .
وهجاؤه لا يخلو من تهكم ومقارنة بين من يهجوهم وبين أعدائهم ،
لإظهار فضل هؤلاء على أولئك ، ولا يخلو من جمع عدة شعراء
في قرَن واحد .

وهو في هجائه الفرزدق خاصة يشبهه بالقرود ، ولا ينسى أن
يحدثه عن معائب قومه وعن القدوم والعلالة والكبر ، وما يتعلق

بصنعة القَيْن ، ولا ينسى أن يذكر له الأيام التي لا تشرف قوم
الفرزدق كتحديثه عن بني مجاشع أنهم خانوا الزبير يوم الجمل ، ثم
هو لا يتعفف عن رمي المحصنات بما يشين .

ويعود فيتكلم عن أخلاق الفرزدق الشخصية فينعي عليه خبثه
وفجوره ، ويشهره بفسقه ودعارته ، ويحذر الناس أن يحل الفرزدق
فيهم ، فيحل معه الخزي والعار ، ثم يتهمة بدينه للمأته الأخطل ،
ويزعم أنه يسجد للصليب مع النصارى ، وأنه قد لحق بهم
لينصرهم وليس به انتصار .

ويزعم أن اليهود شيعته يوم السبت فهو قد خرج عن الإسلام
إلى النصرانية واليهودية ، وقد وجب عليه الحد ، وحل عليه
ما لقيت ثمود .

وإذا هجا الأخطل لم يكد يتجاوز أسلوبه الذي هجا به
الفرزدق من استقصاء معائب قومه في الجاهلية والإسلام ، وتذكيره
بأيامهم التي غلبوا فيها حتى أصبح التغلبي مغلباً أبداً ، عبداً في
كل مكان ، لا نسمو همته إلى مكارم الأمور وأشرافها .

ثم تراه يمدح بكرة لقاتها كلياً ، ومن ذلك يتوصل إلى القول

إِنَّ التغلبي غنيمة ولو كان على ظهر جواده ، وأما التغلبية فلهوانها
كان مهرها فلسين .

وقد أعين جرير على الأخطل بدينه ، فكان يعني عليه
النصرانية والخمر والخنزير ، بله ما كان يوليه من تهكم في تصغيره
وتلقيه بأنه الأخطل أو دَوْبَل^(١) أو ذو الصليب .

وكان يهزأ من دين تغلب الذي هم عليه ، فيذكر أنهم يذبحون
الخنازير خسيصة الأثمان يوم فصحتهم ، وإذا مات منهم الميت
تلقتة الشياطين ، وإذا مات ميت من الإسلام تلقتة الملائكة ،
وهم يعطون كتبهم بشمالهم ، ويعطى المسلمون كتبهم بالأيمن .

ثم يمدح قيس عيلان لآيامها المشرفة على تغلب ، ويذكر
إيمانهم بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ويعير تغلباً بانخذاها وتساقط
المنهزمين منها كتساقط القراد عن الإبل ، فأى ذل وأي هوان
يكون بعد ذلك ؟ وقصيدته الميمية التي يستهلها بقوله :

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام
تكاد تتوفر على هجاء الأخطل ، ولكن شاعرنا لم يرد أن
يقفز إلى الأخطل دفعة واحدة ، بل تغزل وبث واشتكى
ووصف ، ثم حقر الشعراء الذين كانوا يعوون عليه ، فقال إنهم

(١) المذكر من الخنازير ، والحمار الصغير لا يكبر

لقوا جزاء ما كسبته أيديهم ، وانتقم لنفسه منهم ، ثم شبههم بالشعالب
حين تلقى أسداً في العرين له اعتزام وقوة .

ويحدثنا أنه إذا أوقع عليهم صاعقة بادرهم بأخرى تلتهب
التهاباً ، فيطيطون منها بين السماء والأرض ، وليس فيهم إلا مصطلم
المسامع ، أو خصي ، أو رجل عظم هامته حطام .

هذا هو الحكم الذي استقصى به الشعراء في عصره : مصطلم
المسامع ، أو خصي ، أو رجل عظم هامته حطام ، فأين يقع
الأخطل من هذا التقسيم ؟

إنه من قوم لا هم ولا عزة ، ولا مستنكرون لأن
يضاموا ، وما لهم من فخر يوم الخصام .

وأين هؤلاء من أصل جرير الحنفي الذي لا ترام جبال
عزّه ، ومن قومه بني يربوع أولي الأسنة الحداد ، والأسنة
المقاول ، ومن مقامه المكين في قوم يخضع لحكمهم الملك الهمام .
أين من هذا المجد قوم لا يصاهرهم كريم ، ولبس الآباء ولا
الأمهات ، ولا الأبناء ، ولا الأخوال بأولي كرم وعزة :
فالمرأة التغلبية في خزي وريبة ، على مؤخرها الصليب ؛ وفي
(مقدمها) الجذام .

والابن التغلبي يدعى الفُلَيْس ، ولا يسمى ابنٌ في تغلب عبد الملك
ولا هشام .

وأم الأخطل كالتغليبات معروف ما على مؤخرها : صليب
وشامات ، ونسوته الحباث مولعات بقس لا ينام ، ولا يُنيم من عنده ،
وإنما يعكف معهن على لحم الخنزير والنحر ، وعلى الريبة بعد ذلك .
هذا شيء مما يتحدث به جرير في هجاء الأخطل ، وفيه من
المطاعن ما يخرج عن الأدب والأخلاق .

فإذا استكمل كل ذلك اطمان إلى أن خصمه لن يلحقه ، إذ
كيف يعتمد على هذا الجحفل من المخازي في المفاخرة والمناجزة ، أم
كيف تحمله ارساغٌ منكسرة ، وعظام محطمة في رهان المجد والشرف .
هذا هو الأخطل ، بل هذه صورة من صورته في شعر جرير ،
تحله الموقع الثالث من مواقع التصنيف عند خصمه ، حين صنف
الشعراء النماوين عليه بمراتب ثلاث :

مصظم^(١) المسامع ، أو خصي ، أو رجل عظم هاته حطام^(٢) .
ومما يلاحظ أن جريراً لم يكده يخص الأخطل وحده في

(١) المصظم = المستأصل المقطوع من أصله .

(٢) الحطام = ما تكسّر من الشيء اليأس الخفير .

هجاء ، بل كان يتعرض لغيره أثناء الطعن عليه كما كان يتعرض لغير
 الفرزدق أثناء هجاء الفرزدق ذلك ، أن هذه الطائفة المتألمة عليه ،
 لم تكن لتغادر فكره ، ولم يكن يهدأ باله أو ليغمض جفنيه عنها
 لحظة ، فهو - كما رأيت - إذا هجا أحداً أشرك معه غيره في
 الهجاء ، وهو بعد آخذ بخناق مناوئيه أبداً : كوى مجاشعاً قوم
 الفرزدق بالهجاء وحز آنافهم ، ثم جدع أنوف تغلب ، وأرسل
 القصائد في الأخطل رهوا ، ثم علقه بالجل الذي ربط به الفرزدق
 والبعيث وعمر بن لجأ معاً ، كالإبل المشدودة بالحبال .

وقصيدته الدامغة التي فيها أهجى بيت قالته العرب :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

والتي هجا بها راعي الإبل ، وقومه بني نمير ؛ من أعظم ما خلفته
 لنا الأجيال من الشعر الخالد ، وفيها أمثلة على ما ذكرنا لك من
 جمع خصومة الشعراء في بيت واحد ، وتعمير بني نمير بخفة الأحلام ،
 ودناءة المحتد ، مع أنهم كانوا جمة العرب ، وسادة في الناس .

ويحسبك أن تعلم أن أحداً من نمير لم يعد ينتسب بنميراً بعد
 هذه القصيدة ، وقد كان إذا سئل من الرجل ؟ قال : من بني نمير . . .
 ألا ترى !! ومد صوته .

وكما تستوضح فحولة جرير في الهجاء ، من قصيدته الدامغة ،
فإنك تستبين نفسيته الثائرة لكرامته ولسانه الذرب في الدفاع
عن المحارم ، واعتداده بنفسه ، وتسخير مواهبه في مصلحة قومه ،
وتصويره الحياة الغابرة أجمل تصوير ، تستبين كل ذلك وأكثر ،
من قوله : إنما بعثني أهلي لأقعد على قارعة هذا المربد ، فلا يسبهم
أحد إلا سببته .

هذه العصبية الجاهلية ، وهذه النفسية الثائرة للكرامة ، هما
خير ما تفسر به هجاءه ، وقد أيقنت معنا من قبل ، أن نفسية العصر
الأموي كانت جاهلية ، وتوؤ من معنابعد هذا أن هذه النفسية
كانت ثور للكرامة ، إذ علمت أن الحجاج آخذ جريراً على
هجائه الناس وسبهم ، فاعتبر إليه بالدفاع عن كرامة نفسه وقومه ،
وقال له : والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلمونني فانتصر . . . ثم قال :
مالي ولفلان ، مالي ولفلان . . . وما زال يذكر الشعراء الذين
تصدوا له ، وانتصر لنفسه منهم حتى أتى على آخرهم من المساء إلى
الصباح ، فقال الحجاج : قاتله الله أعرابياً إنه لجرو هراش .

من كل ذلك ترى أثر الوراثة العربية ، والبيئة العربية ، وساعد
هذين العاملين أن الرجل مطبوع على الشعر ، فشعر ، وجارى .

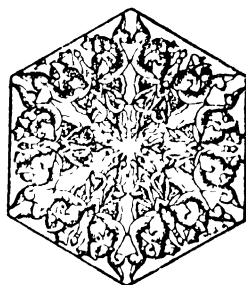
البيئة والوراثة بعمله ، فتكوّن له من مجموع الوراثة والبيئة والعمل الشخصي ، والطبع الفطري ما أنضج عبقريته في الهجاء ، ولا تنس فضل الخلفاء والأمراء في إنماء هذه العبقرية الهجائية ، فقد كانوا يسكتون عما يعرض له الشعراء ، بل كانوا يغرون الشعراء بعضهم ببعض — كما مر بك من قبل — وقد كان في استطاعة ملوك بني أمية أن يقطعوا السنة الفتنة بين القبائل كما قطعها الرسول عليه السلام ، وأبو بكر وعمر من بعده ، وأن يكونوا الجانب الإسلام في كفاح أخلاق الجاهلية ، ما أمكن الكفاح ، ولكن السياسة أثبت عليهم أن يجيبوا نداء الدين والخلق .

وقديماً كان للسياسة من المطامع ما لا يرتضيه الزهدة الصالحون ، ومن هنا نعلم كيف استباح الشعراء أعراض القبائل أيام بني أمية ، وقليل جداً في ذلك العصر من عاقب أوزجر — كعمر بن عبدالعزيز — ونستنتج بعد هذا أن كل شيء كان يدعو جريراً لأن يكون جرواً هراشاً ، وهجاءً فحلاً يفوق الأخطل ، ولا يقل عن الفرزدق .

وأما زعم من ألف في تاريخ الأدب العربي أن شعر جرير قد « برئ من خبث الأخطل وسكره » فلنا عنده وقفة نتساءل فيها عن هذا الخبث الذي يتحدث عنه ، فإن يرد الإقذاع

والفحش في الهجاء فقد زلت به قدمه ، ولم يهتد إلى الصواب قلمه ،
 للذي حدثناك به من تجاوز حدود الأدب والخلق في الهجاء عند
 جرير ، ونعتقد أن المؤلف أراد هذا لأنه قرر بعدئذ أن الهجاء
 مما امتاز به الأخطل ، وبهذا أيد خطأه الأول بخطأ جديد ،
 ووقع بخطأ ثالث حين نفى نبوغ الفرزدق بالهجاء .

وهذه أخطاء لا تشرف التأليف ، ولا تدل على غير الجهل
 وعدم التحقيق ، وإنه لجدير بالمؤلف أن يصحح أحكامه قبل
 كل شيء ، وإلا فما الفائدة من كتاب يقتنيه المقتني من أجل أحكامه
 فقط ، ثم يرى أن هذه الأحكام خطأ بين ، وجهل فاضح ! .



الغزل والرثاء

والناحية الثانية - التي لا يطاولها الفرزدق والأخطل - من شعر جرير : ناحية الغزل والرثاء ، وجرير ولا شك أقوى وأطبع شاعر غزل في الشام والعراق زمن بني أمية .

أضف إلى ذلك أنك لا تكاد تجد شعراً يحاكيه في طلاوته من أشعار المتقدمين إلا قليلاً : تقرأ غزله ورثاءه ، فيخيل إليك أنك تقبض على قلبه ، وتلمس أنفاسه الحرّى ، وعواطفه العاصنة ؛ فهو في غزله سهل العبارة ، رقيق الألفاظ ، بارع في انتقائها ، مُحْكِم لأوضاعها ، سلس الطبع ، ينحدر شعره إلى النفس انحداراً ، فلا تكاد تقع منه على جملة مستكرهة أو كلام مدخول ، ويكاد يكون كل بيت من الأبيات في غزله نجوى نفس أرمضها العشق ، وحزبها ألم الهوى فجاء بما لم يبلغه كثير من عبقریات معاصريه في الشام والعراق .

وهو في غزله مطبوع مجوّد لا تجد عليه أثر الضعف والتكلف - شأنه في سائر أغراضه - وقد كان بديهياً أن يظهر التكلف فيه لأنّه قال عن نفسه ، إنه لم يعشق أبداً ، فكيف صدر هذا الشعر عن قلب لم يلامسه الحب ، ولم يروضه الأسى ؟

الحقيقة التي نؤمن بها أن الرجل لم يرد بالعشق غير ذلك النوع
الذي يذهب بالنفس كل مذهب ، ولقد كان في نجوة منه ، لأن
الحياة العنيفة التي كان يحياها ، من سجال وجدال ، كانت تسد عليه
سبيل الهوى العنيف .

أما الحب فقد كان يعرفه ، ولقد أحب زوجته أم حذرة وتغزل
بها فقال :

أباحث أم حذرة من فؤادي شعاب الحب أن له شهابا
وأحب أبناءه ، وعرف هذه اللذة التي يحملها الحب إلى
القلوب الشاعرة ، والطباع الثائرة .
فهو إذن إن شعر في الغزل ، فما كان يتكلف القول فيه ، بل
كان يتكلم عن عاطفة امتزجت بصميم نفسه .

ويلاحظ أن هذه العاطفة لم تكذب بلغ عمق العاطفة في شعر
جميل والقيسين : ابن الملوح وابن ذريح ، ذلك لأن الرجل لم
ينصرف إلى هذا النوع من القول فحسب ، ولأن الهجاء كان قد
ملك عليه أيامه ، ومع ذلك فلم تكن عاطفته ضعيفة في ثورتها ،
قاصرة عن التأثير ، بل كان فيها من القوة والتأثير ما يملك على المرء
ليه ، ويأسر منه قلبه وفكره ، وكان إذا غزته العاطفة بقي أسر شعره

قويًا ، فلم تهن لغته ، ولم تضعف كما يضعف الكثير من المطبوعين على الشعر إذا دأبهم العاطفة ، وسيطرت عليهم في نظمهم ، فجرير إذن أطبع من أولئك الشعراء الذين يسترون ضعف عواطفهم بقوة ألفاظهم^(١) ، وأقوى ممن تسيطر عواطفهم القوية على ألفاظهم الهينة الضعيفة ، وبهذا تلمس جانباً قوياً من عبقرية جرير ، وتعلم أنه لم يكن يقول الشعر ، كما كانت نقوله طائفة كبيرة من الشعراء ، وأنه في ذلك نسيج وحده زمن بنى أمية في الشام والعراق .

وغزله على ما كان فيه من سحر وفتنة لم يكن فناً قائماً بنفسه ، مستقلاً خارجاً على الطريقة الجاهلية في اتخاذ الغزل وسيلة يتوصل بها إلى المديح أو الفخر أو الهجاء ، فهو بذلك متبع ، وكذلك كان شأنه في الأوصاف التي كان يطلقها على من يحب ، فهي أوصاف جاهلية بأساليب جاهلية ، لا تفرق عن تلك إلا في اتعرض لآلام النفس ، والتحدث عن نزعات الفؤاد وخلجات القلب ، فإذا سمعت جريراً يتغزل بالديار ، ويصف لك الحبيبة تخيلت امرأ القيس وسواه من شعراء الجاهلية ، فالكثير ، والطلح ، والكاس ،

(١) نرى في شعراء العصر كثيراً ممن يحفي ضعف عاطفته بقوة لفظه أو تمنعق كلامه فأنبه لهذا .

والأماكن ، وغير ذلك تسمعه في شعر سواه ، ولكنك لا تسمع
هذه العذوبة في اللفظ ، على جزالة وفخامة ، ولا ترى هذا الشرف
في المعاني على رقة وأنس .

وبهذه الرقة والعذوبة يمتاز جرير ، كما يمتاز بحسن حديثه عن
قلبه الملهب ، وحسن تصويره لمواطنه النائرة .

وإذا لم يكن من جديد في غزله من حيث الأسلوب والمعاني
فليس بضائره ذلك لأن العبقريّة الفنية ليست كلها في إيجاد ما لم يكن ،
بل هي كثيراً ما تكون في السحر والإحسان .

على أن جريراً لم يخل من ابتكار فقد قيل إنه أول من أرجع
الحبيب الزائر خوفاً من الريبة فقال :

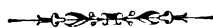
طرفتكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام
وإذا شئت أن تتبين سحره في غزله أخذت هذين البيتين اللذين
سارا كل مسير ، وقد عدّ أولهما أنسب بيت قالته العرب :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحمين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركاناً

وإذا علمت أن ليس فيها معنى عميق ، أو فكر مخترع ،
رأيت أن سحرهما إنما جاء من بديع نظمهما ، ومن هذه المقابلة

بين القتل والحياة ، والقوة والضعف ، فجير يسحرك في الغزل
بمانيه اكثر مما يسحرك بمانيه .

وبينا تجد نفسك في هجائه مأخوذاً بضوضاء اللفظ وطنينه ،
معجباً بقوة جرسه ، وفخامة تركيبه ، وكثرة الغريب من
مفرداته أحياناً ، تجد نفسك في غزله - وفي رثائه - مسحوراً برقة
التركيب ، وبراعة الإيراد ، محبباً لهذا اللين في اللفظ
والسهولة في التركيب ، غير عاثر على غريب من الألفاظ إلا
نادراً . وبينما تجد جريراً يهتك الاعراض ، ويفتري على الناس
الكذب ، فتتخيله وقحاً شرساً فاجراً ، تقوم في نفسك صورة
ثانية عنه حين تسمع غزله فتراه وديع النفس ؛ رقيق الجانب ،
قريح الجفن ، ملتهب القلب ، عفيف اللسان ، لطيف السوال ،
حتى أنك لتكاد تشك أن يكون هذا الرجل قد جمع إلى نفسه
المتناقضات ، وهذا جانب من العبقريه غير يسير .



وبعد ، فيسهل عليك أن تتصور جريراً راثياً من أحبِّ ،
 وإنه من اليسر بمكان أن تتحدث عن رثائه بمثل ما تحدثت به
 عن غزله ، وأن تلمس هذه السلاسة في التركيب ، والحنو في
 العاطفة ، حينما تسمعه يرثي ابنه سواده ، أو زوجته خالدة بنت سعد .
 وأية حرقه أبلغ من حرقه الرجل الشاعر يرثي كبده وقطعة
 نفسه ، بل أية عاطفة أعمق من حزن الأب الثاقل ، لا يرى
 الأجر على مصابه عزاء للبه ، والزوج المفوِّود تثيره في كل ساعة
 أصوات أبنائه المتضاغين من حوله ، وتهيج ذكريات حياته المحمودة
 في نفسه ؟!

والواقع أن رثاءه لابنه سواده ولزوجته أم حزرة صورة نائرة
 للحب المضطرم ، والإحساس المتوقد .

ولا عجب بعد ذلك أن يفوق جرير صاحبيه فيما نذكره
 لك ، وأن تُرثي نوار زوجة الفرزدق بما رثي به جرير زوجته
 أم حزرة .

وكل من قرأ لجرير مرثيه عرف أنه شاعر العاطفة المتألِّمة ،
 والأمل الخفيِّد ، لأنه كان صادقاً في لهفته ، نبيلاً في عاطفته ،

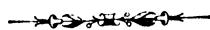
مخلصاً في دمعته . ولم تكن مرأته غير أصوات هواه المكشوف ،
ولم تخرج قصائده في الحرقه الملوحة ، عن غير النبع الذي صدرت
عنه أناشيد حبه المرحه .

وجرير الذي عرف كيف يسحرك ويبهرك ، عرف كيف
يشجيك ويحمل إليك عاطفته . فهو إن حدثك عن عظم خطبه
بابنه ، ذكر لك أن الأجر الذي سيناله عند الله لا يخفف من
ألم نفسه في مفارقة أشباله ، ولا يعزيه في عظيم مصابه ، ثم يصف
لك مبلغ تأثير هذا الألم في نفسه من الوجهة الواقعية حتى تعتقد
أنه قد رزى بجسيم من النوازل ، إذ فقد الابن حين أصبح
الأب كفيف البصر ، متهدم الجسم كعظم الرمة البالي ، ثم
يصف لك حزن كل باكية معوال عليه ، فيشبه حزنها بحزن
الناقة التي أخذ فصيلها ، ووضع لها بؤ تخدع به ، فتدر عليه ،
وتحن إلى جلده وأوصاله ، حتى إذا عرفت أن لا حياة به ، ثارت
هموم صدرها ، ونالها من الأسى ما الله به عليم .

وإذا حدثك عن زوجته ، ذكر لك حياءه في بكائها ،
وزيارة قبرها ، ثم ينتفض ، فيعترف لك بمحبته إياها ، وتوله
قلبه ، وما ناله من فقدائها ، وهو كبير ، وذوو التأم من بنيه

صغار ، ثم يذكر لك ذهوله ، ورعيه النجوم ، ويعمل كل ذلك بأنها كانت نعم القرين النفيس ، الذي يضمن به على كل شيء ، وأنها عاشت مكرمة غير بخيلة ؛ ولا متكبرة ، لا يخشى غوائلها الجار ، ولا يطعن عليها في عرض ولا دين . ويحدثك عن جمالها وسكينتها ووقارها ، وعن وجهها الأغر الذي يزينه الإسفار . ثم يستسقي لها ، شأن شعراء الجاهلية ، ويدعو لها الله والملائكة ، شأن المتقين من صلحاء الإسلام ، ثم يصف قبرها وينتهي إلى تعزية نفسه فيقول :

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكر عليهم ونهار
 وإذا أجملت القول في رثائه قلت : إنه صورة متألة لحبه المرح ،
 ووجه آخر لعاطفته وإحساسه ، يورده مورد القوة والتأثير ،
 فتستبين القوة من أسلوبه وتركيبه ، والتأثير في عاطفته وإحساسه .
 هاتان هما الناحيتان اللتان امتاز بهما جرير : ناحية الهجاء ،
 وناحية الغزل والرثاء ، أو قل إنها ناحيتا العصبية والعاطفة ، وأما
 بقية فنون القول فلم يكن اميز من صاحبيه ، بل ربما كانا
 أفضل منه في بعض الأنواع .



فأما فخره بنفسه وبقومه فمتصل بهجاء غيره ، وقد ذكرنا لك أنه كان إذا هجا افتخر ، وأذلّ خصمه ، وأقام لنفسه وقومه من الفخار كل بناء شامخ ، على أنه لم يبلغ الفرزدق في فخره بأبائه وأجداده ، لأنك تعلم أن الفرزدق وجريراً يمتنان في النسب إلى أصل واحد : هو تميم ، وهو أصل شريف نبيل ، ثم يختلفان في الفروع .

فأما التي كان ينتمي إليها الفرزدق فقد كانت أشرف وأنبل . وإذا افتخر جرير فألى تميم غاية فخره ، وهو لم يعدم أياماً لبني يربوع - قومه - يفخر بها ، وكان فيهم شدة وبأس في الجاهلية والإسلام ، وقد أعين على الفرزدق بأيام خذل فيها بنو دارم قوم الفرزدق وبنو ضبة أخواله .

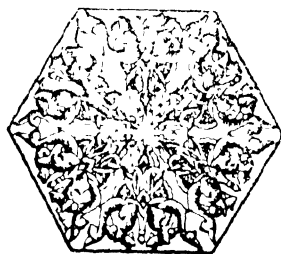
وأظهر ما في فخر جرير اعتداده بنفسه ، فقد كان يرى نفسه أنه البازي المطل على أعدائه ، ينصب عليهم انصباباً وقد أعد الله منه الصواعق على الشعراء ... ثم إن قومه بني تميم ، هم سادة الناس وقد أبى له أن يعاب ماله من ماض شريف فيها ، وأن الملوك لم يجدوا

قوماً أعز من قومه ولا فوارس أسرع استبسالا . فهم الحامون
 الحامون ، ذوو السوابغ ، النازعون عن ذي التاج تاجه .
 وكان يرجع في فخره على الأخطل إلى مضر جد تميم الأعلى
 وفي مضر النبوة والخلافة ، وابن تغلب التي حرمت المكارم ،
 والتي ظلت على النصرانية ، من مضر ، التي سطع فيها نور
 الإسلام ، ونالت غاية الشرف في حسن الفعال . وإنه ليعجبك
 أن ترى جريراً يقيم لنفسه من الشأن ما لو شاء لطلب إلى ابن
 عمه الخليفة أن يسوق إليه تغلب ، عبداً فيقول :

إن الذي حرم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوة فينا
 مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبينا
 هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينا

وخلاصة القول في فخره أنه إذا استطاع أن يفخر بنفسه
 والا يكون دون سواه في هذا الفخر ، وأن يذكر مآثر تميم
 - وهي كثيرة - وأن يقيم لها أعظم بيت في الفخر وهو قوله :
 إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

نقول إذا استطاع كل ذلك فلم يكن لبسطيع أن يقيم
 لنفسه فخراً بآبائه يوازي ما كان للفرزدق ، وإذا
 ذكرت أن أبا جرير عطية كان بخيلا يرضع الشاة لئلا يسمع
 شخب الحليب في الإثناء فيقدم الضيوف عليه ، وإذا ذكرت أن
 غالب بن صعصعة أبا الفرزدق كان كريماً شجاعاً سيداً : عرفت
 أي مستند كان للفرزدق على آبائه ، وعلمت أن جريراً لا
 يستطيع أن يطاوله في مكارم الآباء .



وأما مدائحه فقد كان فيها متاجراً شأن غيره من الشعراء ،
يعرف من اين توكل الكتف ، وقد مدح الولاة والأمرء
والخلفاء فأجزلوا له العطاء ، والذي نلاحظه ، أنه مدح
القيسية وهم زيرية ، وأعداء لقومه تميم ، وعرض بأبناء
الزبير ، ومدح بني أمية ، ذلك أن الرجل كان يستمرئ
العيش في ظلال كل متفضل ، وهو لا يبخل على المنعم
أن يصفه بأفضل الصفات وأن يخصه بأشرف المزايا ، وإن رجلا
لا يبالى أن يمدح الموالي ويسويهم بالعرب شرفاً ومحتداً لأهون
شيء ، عليه أن يقول لبني أمية بيتا ما طاعت الشمس على أعظم
منه في المديح - كما زعموا - وهو :

ألستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح
وقد يكون في هذا البيت كذب غير قليل .

ولا تظهر عصبية جرير في مدائحه بمقدار ما تظهر في أهاجيه
حين يحتاج إلى إظهار مناقب من يناضل عنهم في معرض الحديث
عن أعدائهم .

وهو إذا مدح أطال في صفات الممدوح ، وقد يتجاوز مدح

المدح إلى النيل من خصه ، ثم أنه لا يفخر ، ولا يهجو بعكس ما
كان يفعل الفرزق الذي لم يكن لينسى نفسه وخصومه ساعة المدح .
ومدائح جرير في بني أمية والحجاج ، أعظم أشعاره في المدح ،
وهي لا تخلو من مسحة دينية ، تفسرها لك نفس جرير المؤمنة ،
فالخلافة ، والقرآن ، والأحكام ، والجمع ، والأمانة ، والورع ،
والهدى ، والبركة ، وما إلى ذلك ألفاظ منتشرة في مدائحه لهم ،
وإلى جانب هذه الألفاظ المؤمنة ألفاظ الطلب ، والاستغناء ،
والحاجة ، والفضل ، والإحسان ، والعطية ، وما إليها مما تفسره
حالة الشعراء في تلك الأيام .

وبديهي أن يفضل الشاعر بني أمية وأمراءهم ، وأن يؤيدهم
بلسانه وقلبه ، على أنه كان كيساً فظناً لا يكاد يسخط الناس في
التعريض بخصومهم إلا نادراً ، وإذا عدت جريراً لساناً ينتمي
لحزب ، فالى بني أمية منتمه ، وقد وصل به الأمر إلى مشايعة
الحجاج في رأيه الذي حرّض الوليد بن عبد الملك عليه ، وهو
نقض ولاية العهد التي لسليمان ، وأن يُعهد بالخلافة إلى ابنه عبد
العزیز ، ولولا أن قضى الحجاج بعيد ذلك ، وتبعه الوليد ، وثار
أمير من بني يربوع بمسلم بن قتيبة المشايخ للحجاج فقتله ورضي

سليمان عن بني يربوع قوم جرير ، لولا ذلك كله لقتل جريراً
شعره وتحزبه .

ومدائح جرير تستوعب شطراً كبيراً من شعره ، يقل عن
الهجاء ، وقد يقارب الفخر الغزل ، وهو يفوق الرثاء كثرةً على كل حال
والسبب في ذلك أن الرجل كان أشد انصرافاً إلى الذود عن
كرامته ، وإلى سبّ خصومه من الانصراف إلى أي فن من
فنون القول ، وقد كان مما لاندحة عنه أن يبتدي شعره في الهجاء
والمديح بالغزل ، ثم إنه لولا الحاجة إلى المال لما حط رحله في ساحات
الأمراء والخلفاء على الأغلب ، فهذه هي الأسباب التي تبين لنا
التفاوت الذي نراه في مقدار شعره بكل نوع من الأنواع .
وبعد أن تعرفت إلى ماسلف من فنون عبقريته ، يسهل عليك
أن تفند قول الأعرابي الذي قال :

يبوت الشعر أربعة : فخر ، ومديح ، وهجاء ، ونسب ،
وفي كلها غلب جرير ، قال في الفخر :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
وفي المديح :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وفي الهجاء :

فغض الطرف إنك من نير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
وفي النسب :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلنا
وقال محمد بن سلام : وبنت النسب عندي :

فلما التقى الحيان ألقى العصا ومات الهوى لما أصيبت مقاتله
وتستطيع من ثم أن تقول :

لئن انطلق لسان جرير بهذه الأبيات الخالدة ، فهو لم يبلغ
مكانة الأخطل في المديح لالتزام الأخطل مدح خلفاء بني أمية
سائر أيامه ، ولم يسام الفرزدق في فخره بآبائه ، وشرف محته ،
ولكنه فاقهما في الهجاء والغزل والرثاء .



بقية أغراض القول

هذه هي المواطن التي صرف جرير عبقريته فيها ، وأفرد كل ما أوتي من ذكاء ومقدرة في الكلام عليها ولقد شغلته حوادث الأيام ، ووضعيته الخاصة عن الاسترسال فيما جرى على لسانه من وصف وحكمة ، وشكوى الزمان والإخوان ، وفي اعتقادنا أن بقية أغراض شعره ليس لها قيمة شيء يسير مما قال في المديح ، والهجاء ، والفخر ، والغزل ، والثناء .

ولعل الوصف أحسن قول له يأتي في المرتبة المتأخرة عن الأغراض المذكورة ، إذ أجبره عليه اقول في سائر الأغراض ، فقد كان محتاجاً في المديح إلى وصف الناقة ، والغيث ، والصحراء ، وغيرها ، وكان مضطراً في الغزل إلى التحدث بأوصاف الحبيبة والرسوم ، والقلب ، والعين ، وكان مسوقاً في الفخر إلى الكلام عن الحرب ، والسلاح ، والنار ، وقس على ذلك أشباهه .

وأوصافه مادية محسوسة ، ليس فيها استقصاء ، ولا إغراق ، ولا تتبع للمعاني ، وهي بعد ذلك لا تكاد تسمو إلى الآفاق التي خلّق فيها من قبل .

فهو إن وصف النجوم التي يرعاها حزناً على زوجته شبه تلك

النجوم بقطع من بقر الوحش ، واكتفى بهذا التشبيه ، وإذا استسقى لقبر زوجته دعا له بسحاب راعد غليظ الصوت عالىه ، ذي مطر مدرار فحسب ، وإذا وصف المنازل شبهها - على مألوف العادة الجاهلية - بوحى الزبور ، وتراه فى وصفه يشبه المطي بالقطا فى الفلاة المجهل ، والحرب بالحريق المشعل ، والخصوم بالفراش الطائش ، ونار الحبيبة بلمعان البرق ، وثغرها الضاحك بالاقحوان ، وقلبه الواجب بالجنح الخافق .

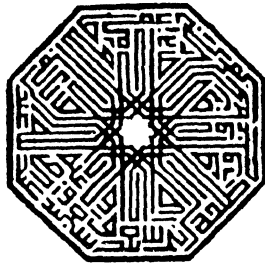
وإذا حدثك عن الحرب أو الحب أو غيره وصف لك أوشبه بكلام حسن لا تنفر منه ولكنه ليس فى الذروة من البلاغة والإبداع ، لأنك تعثر فى شعر الأولين على كثير من أشباه ما يحدثك عنه فلا ترى فى هذه الأوصاف والتشايه ميزة لجرير على سواه ، إلا أن إيراد هاتيك المعاني كان مستساغ الألفاظ ليس فيه تعسف ولا كلفة وهى حسنة تعد للشاعر فى هذه الأغراض

وكذلك تقول عن حكمته وبقية الأغراض التى يمكن أن يعرض لها ، فأنت لا ترى فيها - على قلتها وضآلتها -- شيئاً يسمو بك إلى أفق عالٍ ، أو يحمل إلى نفسك غير معنى ساذج سطحى :

انظر إلى قوله وهو يلتمس الحكمة والعزاء لنفسه عن زوجه إذ يقول

لا يلبث القراء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار
وإنه لمعنى متداول ساذج تحدث به الجاهليون من قبل ، بل
جاؤوا بأبدع منه في معرض العزاء والحكمة ، ويشبه ذلك قوله في
عدم ائتمان الخليل المتلون :

لاتأمننّ ، فإني غير آمله غدر الخليل إذا ما كان ألوانا
ونحب أن نختم الكلام على عبقرية جدير بتقرير هذا الرأي الذي
نعنقده ، وهو أن انصراف شاعرنا إلى أغراض معينة ، وقصوره
في أغراض أخرى ، كان أثراً من آثار عصره ، ونتيجة من
نتائج حياته الأدبية التي كان يحياها ، ولو أنه أحيط بأحوال
وظروف غير التي أحاطت به ؛ لأنّ نتج غير هذا الذي تبيناه من
آثار عبقريته الخالدة .



مميزات عبقرية

معانيه • خياله • لفظه • أسلوبه

تدرس شعر جرير فتستوقفك معانيه وخیالاته في مواطن مختلفة في الحكم ، متباينة في الإغراق وفي الإبداع ، فأتت في بعض هذه المواطن واجد معاني لا يكاد يرتفع فيها الشاعر عن غيره من الشعراء ، بل ربما فضله فيها سواء ، إذ لم تعتمد على خيال واسع ، ولا على إغراق في التفكير ، وهذه المعاني هي التي يتشارك فيها الشعراء كافة ، فهم إذا أطروا عظيمًا تحدثوا عن جرأته وإقدامه وإدراكه للثأر وبناء أجداده للمكرمات الخالدة ، وتقبله طريقتهم في إذلال الخصوم ، وقهر المعادين والمناوئين ، أضف إلى هذا ما يمكن أن يمدح به المرء من سخاء يتناول الرائح والغادي ، وحفظ للعهد والذمار ، وقصر الطرف عن محارم الجار ، وإغاثة الملهوف ، وإجابة دعوة من استجار

وأشبه هذا كثير ، وهو ، بعد ، ملك مشاع للشعراء في الفخر والحماسة والمديح .

وموطن آخر لا يكاد يختلف فيه الشعراء من حيث الأسلوب
وهو التحدث عن الأحبة الراحلين ، وديارهم الدارسة ، التي تبعث
في النفس ذكريات مختلفة والكلام عما يتبع هذا من غزل ووصف
وحنين ولوعة وشكوى ، فالرسوم التي يناجونها عافية لم يبق منها
إلا كخط الكتابة ، والأطلال التي يستوقفون عليها أصحابهم قد
استدرت ماقيهم فليبكوا ولستبكوا ، حيناً إلى من كان فيها ،
وتشوقاً لأيام الصبا العذبة .

وأما القلوب وما يحزّ بها من ألم وحب ، وما تصبو إليه من
هوى ورغبة ، وما تدعوه من الدعوات لتحيا الأرض بعد موتها
فيعود إليها أربابها ، وما يساور النفس من لهف وحسرة ، فكل
ذلك تراه في شعر الشعراء ، وهو مقدمة لقصائدهم في المديح
والحماسة والوصف والهجاء وما أشبه .

وموطن ثالث يشترك فيه الشعراء ، ولا يخرج عن استقطار
دمع العين على فقيد كان عزيزاً في قومه ، محمود الشائل ،
مطري الخصال ، فلما نزل به الموت جلت المصيبة فيه ، ولم تدفع
بما يرجو الأحياء ، أن يقدموه من فداء .

كل هذه المواطن وغيرها معانٍ يشترك فيها الشعراء المتقدمون

في الجاهلية وصدر الإسلام ، وإنما يتمايزون بقوة العاطفة أو ضعفها ،
وحسن الإيراد أو قبحه ، ومثانة الأسلوب ، أو ركائه ،
وما شابه ذلك وهذه أما كن التفريق والتفضيل بينهم ، إذا تساوا
في المعاني والأخيلة ، وما نحسبهم بمتساوين .

وأنت إذا حشرت جماعة من الشعراء فيما ذكر لك لم تستطع
أن تحشر جريراً في زمريتهم ، لأنه وإن تقيل سبل الماضين في
الطريقه فابتدأ القصيد بالغزل ، ثم تحدث عن غرضه ، فلقد
كان ، كما تبيننا ذلك من قبل في الكلام على عبقريته :
أشد عاطفة ، وأنبل شعوراً ، وأرق حنيناً ، وأدق فكراً ، فهو
في أفق أوسع ، وفي سماء أعلى من التفكير والعاطفة والتأثير ، سواء
أكان ذلك في غزله أو رثائه أو غيره .

فأما هجاؤه فيشعرك بأخيلة ومعاني ، هي غاية الغايات في
الشتم والسباب ، فهو إن تناول خصماً وصمه بأقصى ما يمكن
أن يوصم به ذنبي ، وعراه من المفاخر والمكارم ، وإن كان
فيها عريقاً ، معاً مخولاً ، ثم يعرض لقوم خصمه فيفتري الكذب
على ماضيهم ويسم بالذل حاضرهم ، ويحملهم من النقائص ما يبق
سبة على مستقبل الأيام ، وإذا وقع على مثلبة حقيقية تحدث عنها

وذكر يومها وحمل على صاحبها ، فشهّر به ، ولم ينس ، وهو
يذكر مخازي خصومه أن يتحدث عن مكارمه هو ، وعن شرف
محمده ، فيقارنه مقارنة تكون فخراً له وعاراً على خصمه .

ومعانيه في الهجاء مستفيضة كثيرة لا تستطع إحصاءها ، فهي
تقوم على ذكر ما كان يكره العرب وما كانوا يعيرون به أربابه
كالجهن والبخل والهزيمة ، والإحجام عن نجدة المستنجد ، والتغاضي
عن دعوة الملهوف وربما استرسل جرير في الطعن على الأعراس
حتى يجعل خصومه أغماراً حمقى لا يفرقون بين الخير والشر ،
ولا يميزون النافع من الضار ، ولا المكرمة من العار .

وإذا تجلبت لعينه مفخرة من مفاخر خصمه ، ليس في الإمكان
إخفاؤها ، عمد إلى ازدراءها وأظهر أنها من الضلالة بحيث لا تذكر
أمام ما له من مفاخر ، ثم يأخذ بتعظيم ما يتعلق به ، واستصغار
ما يتعلق بخصمه .

وتستطيع أن تقول : إن أهاجيه قصصُ معائبٍ أو قاموسُ
شتائمٍ فيه إيجاز تارةً وطويل تارة ثانية ، وهذه القصص معتمدة
على خيال يستمد عناصره من المادة المحيطة به ، ويستعين بالحواس
على تأليف الصور والأشكال والألوان .

وهنا يحسن بنا أن نلغف إلى أثر المادية في معانيه ، وانطباعات
الحس في قصائده وتشبيهاته ، حتى أنك لا تكاد تجد صورة من
صوره الشعرية غير معتمدة على الحس والمادة .

ولقد كان في حسه قوياً مع تأثره بما أحيط به ، فإذا انبسط
خياله ، وألف صوراً مختلفة الروعة والحسن ، فإنك واجد أن
هذا الخيال لم يعتمد في تشبيهاته واستعاراته إلا على نتاج بيئته ،
فهو لم ينسلخ عنها في جميع مواده الأولية الأصلية ، ليصوغ
مالديه من تشبيه واستعارة .

وكان تأليف خياله للصور الشعرية ، تأليفاً لا تجد عليه أثر
التكلف والعسر ، ولا أثر الصنعة التي يتعدها الشاعر بالنحت
والصقل والتهذيب .

وهذا الحكم يغلب عليه في شعره ، حتى أنك لترى في ديوانه
من القصائد التي تبلغ الثمانين أو المائة ، ما يتدفق تدفقاً ، كأن
الشاعر يغترف من بحر لا قرار له ، ذلك أن خياله وحسه يزخران
بالانطباعات التي يجري بها اللسان في سهولة ويسر .

وليس معنى هذا أنه لم يكن يعتمد التهذيب والصقل ، بل
نحن نذهب إلى أنه في بعض أشعاره المطولة التي كان يمدح

بها أو كان يناقض بها خصومه ، والتي فضحت أقواماً وأذلت
آخرين ، كان يعتمد فيها على التهذيب والتفقيح فجمعت إلى جودة
الطبع حسن الصنع .

وكتب الأدب تحدثنا أنه حينما نظم قصيدته الدامغة في راعي
الإبل عمد إليها فهذب منها ما هذب ، وحذف ما حذف حتى
استقامت له على ما نرى .

فإذا أضفت إلى ما تقدم من قوة الحس والتأثر بالمادة ، وانتزاع
التشابة من المحيط .

وإذا أضفت إلى ذلك نفساً متقدمة ، وروحاً وثاباً ، وقلباً ذكياً ،
وأنفاً حمياً ، رأيت أي معين يستمد منه الخيال لصوغ المعاني
وإبداع الصور ، وعلمت أن جريراً كان يقرن إلى دقة الحس
وحدته ، رقة النفس وشدها .

وإذا ذكرت عصبية الجاهلية في طبعه ، وأنه كان قد تأثر
بالقرآن إلى حد بعيد ، وجدته قد جمع إلى (مادّية) الجاهلية ،
وخصائصها (معنوية) الإسلام ومزاياه ، وأنه وإن خشن وقوي
وأكثر من معاني البادية ، فلقد كان له من رقة الإسلام وسهولته
واعتداله نصيب كبير ، فجمع في كثير من قصائده وضوحاً تاماً .

على أنك تشعر بغموض معانيه في شطر من شعره ، أثر فيه
الجزالة على الرقة ، والقوة على اللين ، والواضح من شعره : بين الغرض ،
مشرق المعاني ، فضِّل فيه بتفضيل اللفظ السهل على القوي الجزل .
وليس معنى هذا أنه لم يكن رصين البناء ، مقين التركيب ،
خالياً شعره من اللفظ الغريب ، بل كان له من كل ذلك حظ كبير
في نقائضه ومدائحه ومفاخره وأهاجيه ، حتى ملئ قسم منها بالغريب
القوي الجزل ، لأنَّه محك العبقرية وسعة الاطلاع ، والقدرة على
الرصين الجزل من اللفظ والأسلوب في القديم^(١) .

ولغته على كل حال أيسر من لغة صاحبه الفرزدق ، وأسلوبه من
النفس أقرب ، ولعل ذلك أثر القرآن في شعره ، وأثر الطبع الرقيق في
لغته فلقد صُفي هذا الشعر ، ورققت لغته ، فقل الغموض في معانيه
بالنسبة لشعراء عصره ، وخلا من الكلام المدخول ، والجلل الكريهة ،
والمعازلة حتى أصبح شعره أكثر ذيوغاً من شعر صاحبيه ، وأبعد
مسيراً ، ولهذا قيل إنه أشعر عند العامة ، والفرزدق أشعر عند الخاصة .
وكان جرير في سهولة ألفاظه ، ويسر أسلوبه يستعمل الألفاظ
القرآنية الإسلامية ، في كثير من الأحيان ، وينظم أو يشير إلى كثير

(١) أنظر حكم ابن شرف القيرواني عليه في أحكام الأدباء عنه .

من معاني القرآن ، وهذا مجال الإشارة إلى ثقافته الدينية الواسعة .
وتلاحظ على شعر جرير أنه كثير التردد لبعض الألفاظ والمعاني ،
وبديهي أن يكثر المرء من ذكر ماله علاقة بقلبه وحبه ، وأما كن
ذكرياته المعسولة .

ونلاحظ عليه أنه كان في تردد أسماء الأماكن يدعو
لسائر المواضع التي تشابه أمكنة الذكريات بالسقيا والحميا
إكراماً لموضع صبوته ومهد هواه .

على أنه لم يكن يردد الكلمات لها فيها من جمال الذكرى
وحسن اللفظ فحسب ، بل كان يردد في بعض الأحيان كلمات
فيها قبح وهجاء ، وقد يكرر لاستثارة من يخاطبه أو للإزدراء
به ، وأغراض التكرير كثيرة متعددة .

وتلاحظ على أسلوبه أنه بينما كان يماشي الطريقة القديمة في
تقديم الغزل على الهجاء أو المديح أو غيره ، يتنكب هذا الطريق
في بعض من قصائده ، فلا يتغزل ولا يحبي الدار ولا يصف ، بل
يبدأ بالغرض الذي سيق إلى القصيدة ، فيفاجئك بالهجاء أو
المديح أو الفخر وهذا التنكب عن سبيل المتقدمين يمكن أن يعدّ
تجديداً في الأسلوب ، ولكنه وإن جدد من هذه الناحية فهو

لم يقصر شعره على طريقته ، بل سائر أسلوب المتقدمين في معظم شعره ، وهنا ننتبه إلى أن جريراً هو الذي سن هذه السنة ، فلما جاء من بعده كأبي نواس من المجددين تنكبوا طريق المتقدمين فمابوا على من بدأ شعره بأسلوب الجاهليين الأولين ، ولعل جريراً كان يؤثر هذا التجديد ولكن أذواق المعاصرين ، وميل الناس إلى القديم وتعلقهم بأذيقه في عصر بني أمية ، حمله على مسامرة عصره كيلا يؤخذ عليه ذلك مطعناً يستغله خصومه الكثيرون ، فأرسل شطراً عظيماً من شعره على الطريقة القديمة المألوفة وسجل الطريقة الجديدة بمقطوعات في الهجاء والمديح وغيره .

وترى في أسلوب جرير ظاهرة تكثر في شعره العباقره الذين لا يريدون أن يلتمسوا المدخل من الغزل إلى المديح أو إلى الهجاء فهو بعد أن يبدأ مقدمته بالغزل على مامر ، ينتقل فجأة الى الغرض الذي يريد ، دون أن يمهد لذلك بما يسمونه حسن الانتقال ، فهو لا يدور بالقارئ من مكان لآخر ، وما يزال به حتى يجد المدخل إلى غرضه الجديد بل يقتضب الكلام اقتضاباً شأن كثير من المطبوعين .

على أنه قد يجد في بعض الأحيان رابطة تختلف قوة وضعفاً

وتصل بين المقدمة والغرض الجديد ومن هنا نرى جريراً لا يلتزم وحدة الموضوع في قصيدة ، والقصيدة عنده يمكن أن تحتوي على كثير من الأغراض كالغزل ووصف الدار والناقة والصحراء والمدح والفخر والهجاء في وقت واحد ، وأمثال هذا كثير في ديوانه ، وهذه كما تعلم طريقة الجاهلية .

وكان أهل الجاهلية في التزامهم وحدة الموضوع في القصيدة ، يلتزمون وحدة البيت ، وكانوا يعيبون على من يعلق معنى بيت بآخر يليه ، وكان لزاماً على الشاعر أن يتم المعنى في البيت نفسه فإذا علق خرج على وحدة البيت وكان ذلك نقصاً في صنعه . والتزم جرير وحدة البيت إلا أنه لم يتقيد بها ، فقد علق معنى بيت بآخر يليه ، وكان ذلك قليلاً في شعره .

وتلاحظ في أوزان جرير أنها الأوزان التي كان يغلب استعمالها في الجاهلية ، وأما قوافيه فتشاهد الأبيات تنصب إليها وتنحدر انحداراً ، كما أنك لا تجد في شعره أبناء علة ولا في قوافيه تقلقلاً ولا اضطراباً .

ولكنك تشاهده لا يلتزم ما قرره علماء العروض المتأخرون من وجوب الامتناع عن تكرير القافية قبل سبعة أبيات فقد

كان جرير أعلى من ذلك ، وسنرى أنه كرر انقافية ولم يفصل بينها إلا بيت واحد وذلك نادر في شعره .

أما صنعة البديعية ومحسناته فقد ورد في شعره منها كثير وإن لم يكن متعمداً ، كالتوشيح^(١) والجناس الناقص أو الطباق أو سواء ونرى بعضه مما يستشهد به علماء البديع الذين يرجعون هذا العلم إلى الجاهلية ويقولون - وهو الحق - إن البديع فن قديم تطور مع الأيام فلم يكن مسلم بن الوليد ولا جماعة العصر العباسي بأول من تكلم في الصناعة البديعية^(٢) .

وكما ترى فريقاً من علماء البديع يستشهدون بأبيات من شعره ويعدونها كنواة لعلم البديع ، فكذلك تشاهد علماء اللغة وقواعدها يجدون في شعره - كشعر صاحبه الفرزدق - مستنداً وموئداً لكثير من آرائهم التي يسطرونها في مباحثهم المختلفة .

هذا مجمل القول في شعر جرير ، تبيننا منه معناه ومبناه ، وإنه لمن المؤسف المؤلم أن يكون نتاج هذه البقرية منصرفاً أعظم الانصراف إلى الهجاء المقذع والكلم الفاحش ،

(١) هو التعميد للفظ القافية بما يشعر بها .

(٢) أنظر دراسة شعر صربع الغواني للمؤلف ص ١٢٨ .

وإنه لما يشجى النفس أن يكون من الأمانة في الحديث تسطير
ما نشير إليه من مواطن عبقرية الشاعر ، ولكننا نقتصر تنزيها
للأنامل والأسماع والعيون .

وإنه لمن الصعب على من يحاول تنزيه عينه وسمعه وقلمه أن
يتحدث بما ينكر ؛ ولكن أدب بني أمية الواقعي يحملنا على
الإيراد ، والتنزه يحملنا على الاقتصاد ، وفي الديوان للراغب
ما ينقع الغلة ، ويروي الصدى .



استطلاع آفاق

مرّة معك الجمل من الكلام على شعر جرير وتبيّنت الأحكام التي أطلقناها عليه ، ومن الحق أن تلمس بيدك المواطن التي دعت إلى تلك الأحكام .

وهذا بحث نشير فيه إلى الأماكن البارزة من شعره وسترى أن جريراً وإن شارك الشعراء في معانيها ومبانيها ، وفي طريقة الإيراد والأسلوب ، فقد ابتكر وأتى بما لم يجر على لسان أحد من قبله .

وأنت تذكر أنه قال أربعة أبيات — في الفخر والمدح والغزل والهجاء ، قل العلماء إنها أحسن ما قيل في بابها إلى زمنه وقد تقدمت في الكلام على عبقريته .

أما نحن فلا نريد أن نوّمن بما قالوا كل الإيمان ، لأن الشعر فن قائم على الذوق ، والأذواق تختلف وتباین بحسب اختلاف مقاييس الزمن والبيئة والثقافة ، فليس أديب العصر مقيداً بأحكام الماضين ، قرب حكم عمه صاحبه ، ولم يدعه إلى التعميم

استقصاء ولا دراسة ، وإنما دعاه إليه هوى ملك عليه فكره ،
وسحر أخذ من قلبه مأخذه لسماع بيت واحد لا أكثر .
وهنا تختلف أذواقنا وأذواق المتقدمين ، وإن نعجب فمن طائفة
تؤلف الكتب ، وتدرس الأدب ، وما تزال تعيش بأذهانها في
العصور المتقدمة ، وإن كانت تعيش بأبدانها في هذا القرن العشرين ،
وإن نضحك فمن مؤلف يقرر أن أمدح ببت قالته العرب في التقديم
والحديث قول جرير :

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
وهو يعلم أن المعاني لتطور مع الأزمان ، وأن الإغراق تطور
حتى وصل إلى الإحالة ، وهو يعلم - أو لا يعلم - أن ابن هاني
قال في المديح :

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وما عرف بيت فيه من الإغراق والمبالغة في المديح ما في قول
ابن هاني .

فهذا في الإغراق والمبالغة أعظم من بيت جرير ، وإن أنكر
منكر إغراق جرير في بيته قلنا له : إن في بيت جرير لإغراقاً
عظيماً ، فليس بنو أمية خير من ركب المطايا ، وليسوا أندى العالمين

كفأً ویداً ، فإن الله قد شرف سواهم عليهم ، وفي بيت النبوة من الشرف مالا يطاول .

وكذلك نقول في بقية الأبيات وسيمر بك ما قد يحملك على تغيير رأيك في القول الذي أطلقه بدوي مجهول ، فاستمسك به كل أديب معروف .

أما معاني جرير الرائعة فمنها قوله في التحدث عن الطبائع الغريزية في النفس ، وميل الناس إلى أشباههم :

ان الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللئيمة للئام تصور
وقوله في الهجاء المقذع اللاذع عن طريق التمسك والزراية :
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع
وقوله في المقارنة بين الضدين وفيه من القوة ماترى :

وابن اللبون إذا مالز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس
وقوله في خيبة الرجاء والأمل الكاذب :

رأيتك مثل البرق يحسب ضوءه قريباً وأدنى ضوءه منك نازح
وقوله في هجاء الذكور والإناث من خصومه :

أما الرجال فجعلان ونسوتهم مثل القنفاذ لاحسن ولا طيب

وهذه أبيات يشتمل بها الأدباء في القديم والحديث ، هي
ولا شك أمثال خالدة على الأيام ، وغيرها كثير ، فقد قيل إن
عبد الملك بن مروان سأل جلساءه هل تعلمون أهل بيت قيل
فيهم بيت شعر ودّوا أنهم افتدوا منه بأموالهم ، وشعر لم يسرهم
به حمر النعم ؟

فقال له أسماء بن خارجة : نحن يا أمير المؤمنين .

قال وما قيل فيكم قال قول الحارث بن ظالم :

وما قومي بشعبة بن سعد ولا بفزارة الشعر الرقابا
فوالله يا أمير المؤمنين إني لألبس العِامة الصفيقة فيخيل إليّ
أن شعر قفائي قد بدا منها . وقول قيس بن الخطيم :

هممنا بالإقامة يوم سرنا مسير حذيفة الخير بن بدر
فما يسرنا أن لنا به حمر النعم .

وكان هانيء بن قبيصة النميري في المجلس فقال : بل أولئك

نحن يا أمير المؤمنين، قال فينا جرير :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
ولو وُضعت فقاح بني نمير على خبث الحديد إذن لذابا
والله لرددنا أننا افتديناه بأملّا كنا . وقال فينا زياد الأعجم

لعمرك ما رماح بني نمير بطائشة الصدور ولا قصار
فو الله مايسرنا به حمر النعم .

ومن هذه القصة وأشباهها ترى أن مقياس الأفضل والأقبح
يتبع نفس الرجل فربما استحسن المرء مالا يستحسنه سواه .
وانظر في هذا البيت الذي هجا به جرير الأخطل فقال :
والتغلي إذا تنحنح للقرى حك اسمه وتمثل الأمثالا
فقد كان جرير يقول : قلت فيهم بيتاً لو طعن أحدهم في اسمه
لم يحكها .

ويقول أبو هلال العسكري : لو قيل أن أهجي بيت قالته
العرب قول الفرزدق لم يبعد وهو :

ولو تُرمى بلوئم بني كليب نجوم الليل ماوضحت لساري
ولو يرمي بلوئمهم نهار لدنس لوئهم وضح النهار
وما يغدو عزيز بني كليب ليطلب حاجة إلا بجار ؟
ومثل هذا قول الآخر :

لو أن عبد القيس ترمى بلوئها على الليل لم تبد النجوم لمن يسري
وكانوا يزعمون أن أهجي بيت قول الأعشى .

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خنائصا
وقيل بل قول جرير :

إن السليطي خبيث مطعمه أخبت شيء حسباً والألمه

محرفشاً بحسب لا نعلمه (است السليطي سواء وفمه)

خنزير بر سيء تنسمه هل لك في بيض خصي تلقمه

ويزعمون أن أهجي بيت قول الخطيئة في الزبرقان :

دع المكرم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطعام الكاسي

وقيل بل قول الفرزدق بجرير :

أنتم قرارة كل معدن سوءة ولكل سائلة تسيل قرارا

وقيل بل قول الأخطل لجرير ^(١) :

مازال فينا رباط الخيل معلمة وفي كليب رباط اللوئم والعار

قوم إذا استنبح الاضياف كلبهم قالوا لأهمهم بولي على النار

فجعلهم بخلاء ، وأهمهم خادمهم ، يأمرونها بكشف عورتها

لتبول على النار بخلاً بالماء ، وجعل نارهم من القلة بحيث تطفئها

بولة ، وأغرى بينهم وبين المجوس الذين يعظمون النار . وقيل

بل أهجي بيت قول الطرمّاح :

(١) نهاية الأرب ج ٣ ص ٢٧٦ .

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
وقيل قول الأعراي :

اللؤم أكرم من وبر ووالده واللؤم أكرم من وبر وما ولدا
قوم إذا ما جنى جانبيهم آمنوا من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا
وللشعراء في الأهاجي معانٍ لا تحصر .

وقد قالوا إن خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا
يقبح بمثلها ، واختار أبو العباس قول جرير :

لو أن تغلب جمعت أحسابها يوم التفاخر لم تزن مثقالا
وإنما فضل قوله : ففض الطرف ... لأن فيه تفضيلا
بين غير وبين كعب وكلاب ولأنه يخلو من الفحش في القول .
أما أمدح بيت قالته العرب فقد زعم أنه قول جرير في
عبد الملك :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
وأنكر ذلك جماعة ، لما تعلم من نسبة الأحكام في الأدب ،
وأن ما يعجبك قد ينكره سواك فقالوا بل أمدح بيت هو قول
زهير في هرم بن سنان حين قال :

لو كنت في شيء سوى بشرٍ كنت المنور ليلة القدر

وقيل بل أمدح بيت قول النابغة في المنذر :

ألم تر أن الله أعطاك سورة يرى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب
وقيل بل قول الأعشي :

فتى لو ينادي الشمس ألفت قناعها أو القمر الساري لألقى المقالدا
وقيل بل قول زهير :

تراه إذا ما جثته مهلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
وقيل بل قول الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد
وقيل بل قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بعزم أو مجدهم قعدوا
وقيل بل قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
وقيل بل قول أبي الطمحان القيني :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
والغلالة لا تعرف حداً ، والإعجاب لا يقاس بمقياس ، وربما
لم تستسغ ما نستسغ ، والأحكام بنات الأذواق ، وقديماً اختلف

الناس في ذلك فما استطاعوا تحديد الإعجاب والاكبر .

أما أفخر بيت قالته العرب ، فزعم أنه قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وقيل بل قول الفرزدق :

ترى الناس ماسرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وقيل بل قول عمرو بن كلثوم :

ونحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن العائفون إذا عصينا

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا

وقيل بل قول السمائل :

وأسيافنا في كل شرق ومغرب بها من قراع الدارعين فلول

وقيل غير هذا البيت من قصيدته كقوله :

إذا سيد منا خلا قام سيد قوؤل لما قال الكرام فلول

وقيل بل قول جرير :

أنا المحامي إذا ما الخيل شتمتها وقع القنا بسروج فوق ألباد

وقوله :

أنا الدهر يهني الموت والموت خالد فجنني بمثل الدهر شيئا يطاوله

وأما أغزل بيت ف قيل إنه قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركاناً
وقيل : بل أقواله الآتية من قصيدة واحدة ، وما نعتقد أنها
تبلغ مبلغ البيتين الأولين وهي :

فلما التقى الحيان ألقى العصا ومات الهوى لما أصيبت مقاتله

وقال اللواتي كن فيها يلمني لعل الهوى يوم المغزّل قاتله

فلو كان هذا الحب حباً سلونه ولكنّه داء تعود عقابه

فهيات هيات العقيق ومن به وهيات خل بالعقيق نواصله

وقيل قول جميل :

لكل حديث يئنه بشاشة وكل قتل عندهن شهيد

وقيل قول الأحرص :

إذا قلت إني مشتفٍ بلقائها وحمّ التلاقي بيننا زادني سقما

وقيل قول عمر بن أبي ربيعة :

فتضاحكن وقد قلن لما حسن في كل عين من تود

وقيل قول امرئ القيس :

وماذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل
وهذه أمثلة لم نجاوز في إيرادها عصر جرير وما تقدمه ،
ولو أوردنا لك شعر المتأخرين لرأيت في ذلك العجب ، والذي
يهنأ أن تكون تلك الأبيات السالفة دليلاً واضحاً على اختلاف
الأحكام باختلاف الأذواق فليس لامري أن يحمل سواء على
رأي من أشباه ما ذكرت .

وفي كتب الأدب كثير من الأحكام ضربنا عن استقصائها
صفحةً لأنها كانت لا تستند في الغالب إلا على هوى وإعجاب
مفاجيء ، فليس لتأخر أن يقلد متقدماً دون أن يعمل الفكر ،
وأن يلمس أثر الشعر في قلبه وفكره .

* * *

فإذا تبينت هذا حسن أن تبين خصائص شعره ، وأن تلمس أما كتبها
فأما أثر المادية في شعره فتراه في تشابهه ومجازاته واستعاراته
المختلفة ، فمن ذلك تشبيهه ولد الناقة الضعيف الذي لم تتم أشهر
حملة بعروق شجر ضعيف ينبت في الأراضى الرخوة ، وهو الرُّخامى :
وأجلاد مضعوف كأن عظامه عروق الرُّخامى لم تشدد مفاصله

ومن ذلك تشبيه المطر بقوله :

سقتها الثريا ديمة واستقت بها غروبَ سِماكيّ تهلل وابله
تري لحبيبه رباباً كأنه غواذي نعام ينفض الزف جافله
وقوله في مدح عمر بن عبد العزيز :

كم بالمواسم من شعناء أرملة ومن ياتيم ضعيف الصوت والنظر
من يعدك تكفي فقد والده كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
يرجوك مثل رجاء الغيث تجرهم بوركت جابر عظم هيض منكسر
أخوالك الشم من قيس إذا فزعوا لا يعصمون حذار الموت بالخطر
ومن استعاراته قوله وفيه المقابلة :

تحي الروامسُ ربعها فتجده بعد البلى وتيمته الأمطار
وأما نفسه الشديدة المتقدة ، وروحه الوثاب ، فتراه في
أقوال له منها :

لست بذئ دحس^(١) ولا تعريض إلا جهار المنطق المنخفض
أفقاً عين الشاني البغيض فقئ الطبيب قرحة المريض
وقوله :

إن تضرساني^(٢) تجدا مضرّاً قد لبس الدهر وأبقى ملبساً^(٣)

(١) فعل الشي خفية (٢) تجرباني (٣) أبقى بقيته .

خلقت شكسًا^(١) للأعادي مشكسًا أكرى الأسرى وأقطع النساء

من شاء من حر الجحيم اقتبسًا

وقوله للفرزدق :

أنا الدهر يفتي الموت والدهر خالد فختي بمثل الدهر شيئًا يطاوله
أمن سفه الأحلام جاؤوا بقردهم إليّ وما قرد لقرم يصاوله

وقوله :

عوى الشعراء بعضهم لبعض عليّ فقد أصابهم انتقام
كأنهم الثعالب حين تلقى هزبراً في العرين له انتقام^(٢)
وأما رقة نفسه فتراها في أماكن الغزل والرثاء حين يقول :

بنفسي من تجنيه عزيز عليّ ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجع النيام
فدى نفسي لنفسك من ضجيع إذا ما التجّ بالسنة المنام
أتنسى إذا تودعنا سليحي بفرع بشامة سقي البشام
فلو وجد الحمام كما وجدنا بسلازين لا كتأب الحمام
فما وجدك كوجدك يوم قلنا على ربع بنظرة السلام

وقوله :

بتنا ترانا كأننا ما يكون ألا ياليتها صدقت بالحق رؤيانا

(١) شرس الخلق (٢) اعتزام

وأما اثر تدينه وإسلاميته ، والفاظه القرآنية فتراها حينما يعيب
على الأخطل نصرانته ، وعلى الفرزدق مشايعته للأخطل ، وفي
غير هذه الأماكن كقوله في رثاء زوجته :

صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما نصب الحجيج ملبدين وغاروا
وقوله في رثاء ابنه ، وفيه إشارة لما ينال الصابر من الأجر :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
وفي رثاء يحيى بن مبشر :

صلى الإله عليك يا بن مبشر أني قتلت بملتقى الأجناد
وقوله في هجاء التيم :

ولو علم ابن شيبة لوئم تيم لما طافوا بزمرم والحطيم
وفي هجاء الفرزدق :

ألا قبح الله الفرزدق كلما أهلّ مصلٍ للصلاة وكبرا
فلا يقربن المروتين ولا الصفا ولا مسجد الله الحرام المطهرا
فإنك لو تعطي الفرزدق درهما على دين نصرانية لتنصرا
وحينما نفى عمر بن عبد العزيز الفرزدق عن المدينة بعد أن أجله
ثلاثاً وقال الفرزدق :

أأوعدني وأجلني ثلاثاً كما وعدت لمهلكها ثمود

قال جرير :

نفاك الأغر بن عبد العزيز بحقك نُنفي عن المسجد
وشبهت نفسك أشقى ثمود فقالوا ضللت ولم تهتد
وقد أجَّلوا حين حل العذاب ثلاث ليالٍ إلى الموعد
ويظهر تعلقه بالآفاظ الإسلام حتى في الغزل بمثل قوله :

يا أخت^(١) ناجية السلام عليكم قبل الفراق وقبل لوم العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل
وقوله :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردي عليّ فؤادي مثلاً كانا
وقد لاحظت في معظم ما مر معك - إن لم يكن في كله - وضوحاً
تاماً فيما ذهب إليه الشاعر ، وألفاظاً لينة سهلة ، كما رأيت إلى
جانبها ألفاظاً بدوية قوية فيها شيء من القريب .
ولاحظت في شيء مما مر من الغزل ترديده لبعض الألفاظ
كترديد البشام ، والحمام .

(١) وفي رواية (يا أم ناجية) أو (يا آل ناجية)

ومن ترديده في معرض الهجاء والتحقير ما تراه في هذه الآيات

المعالية التي لا يفرق بينها بيت :

هلا أدرا تم سوانا يا بني لجأ
أمرأ يقارب أو وحشاً لها غرر
أو نطلبون بتم لا أبا لكم
من تبلى التيم أوتيم لها خطر ؟
ترجو الهوادة تيم بعد ما وقعت
صماء ليس لها سمع ولا بصر
قد كانت التيم من قد نصبت له
بالمجنيق وكلاً دقه الحجر
ومن التريد للاستثارة أو الازدراء قوله لزيق وتد زوج
الفرزدق ابنة له فقال :

يازيق أنكحت قيناً باسته حمم
يازيق ويحك من أنكحت يازيق
يازيق ويحك كانت هفوة غبناً
قينا^(١) فقيرة أم بارت لك السوق
ومن ترديده إقامة للوزن وتجيلاً للنسيب . واستعذاباً للفظ :
إذا سايرت أسماء يوماً ظعائناً
فأسماء من تلك الظعائن أملح
ظللن حوالي خدر أسماء فاتحى
باسماء موّار الملاطين أروح
صحا القلب عن أسما وقد برّحت به
وما كان يلقي من تماضر أروح
أما سيره على الطريقة القديمة في البدء بوصف الأطلال
والرسوم ، والتحدث عنها ، والكلام على الأعبة ، والتغزل

(١) القينان الحدادان ويريد بهما الفرزدق وغالباً ، وفقيره أم صعصة .

بهن ، فواضحٌ في كثير من مطالعه ، إذ يشبه الأطلال بالخط
والكتابة ، ونلاحظ مع ذلك أنه كان يشبه الرسوم بأحرف
مسماة بعينها كالكَاف والميم واللام والألف ، وهو إنما يريد
تشبيهها بالكتابة مطلقاً ، وقليل بل نادر من جاء قبله فشبّه
بالأحرف المسماة ولعل ذلك لشيوع الأمية في الجاهلية ، وذيوع
الكتابة في الإسلام ، فمن ذلك قوله :

ألم على الربع بالترباع غيره

ضرب الأهاضب والنّاءجة العصف
كأنه بعد تخنان الرياح به رَقٌ تبين فيه اللام والألف
وقوله :

حي الديار كوحى الكاف والميم ما حظك اليوم منها غير تسليم
إذ أنت صادٍ بنبل جفنٍ مقتتل والشرب يمنع من صديان مهوم
وقد بلغ في محاكاة الأقدمين مبلغ الآخذ المستعين باللفظ
والمعنى بله الأسلوب إذ يقول :

تباعد هذا الوصف إذ حل أهلها بفوٍّ وحلت بطن عرق فعرعرا
وشبيه بهذا الإيراد والكلام قول عنتره :

كيف المزار وقد تربع أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيم

وقول امرئ القيس :

وحلت سليبي بطي فوفرعرا

وأما اقتضابه بعد وصفه الأطلال والرسوم ، وبعد التغزل فمثل قوله :

ما هاج شوقك من رسوم ديار بلوى عنيزة أو بصلب مطار

أبقى العواصف من معالم رسمها شذب^(١) الخيام ومربط الأهمار

أمن الفراق تعبت يوم عنيزة كهواك يوم شقائق الأحفار

ورأيت نارك إذ أضاء وقودها فرأيت أحسن مصطلين ونار

أما البعيث فقد تبين أنه عبد فعلك في البعيث تماري

واللؤم قد خطم البعيث ورزمت^(٢) أم الفرزدق عند شر حوار

إن الفرزدق والبعيث وأمه وأبا البعيث لشرما إستار^(٣)

ولقد لاحظت اقتضاب الشاعر وطفرته من الغزل الى الهجاء

ما بين الرابع والخامس . ومثله في المطلع والاقتضاب :

هاج الهوى وضمير الحاجة الذِكرُ واستعجم اليوم من سلومة الخبر

علقت جنية ضنت بنائها من نسوة زانهن الدل والحفر

قد كنت أحسب في تيم مصانعة وفيهم عاقلاً بعد الذي ثتمروا

(١) ما بقي من العبدان المنفرقة والكلأ المأكول وغيره (٢) حنت .

(٣) أربعة .

تعرض التيم لي عمداً لتهجوني كما تعرض لاست الخارئ الحجر
ومما تجدد فيه تساوقاً في المعاني يخرج عن حد الطفرة والاقتضاب
قوله في قصيدته العظيمة التي يبدوها بقوله :

حي الهدمة من ذات المواعيس فالحنو أصبح قفراً غير مانوس
وفيها بعد سبعة أبيات صرفها بالغزل :

فقلت للركب إذ جد الرحيل بنا ما بعدُ يرين من باب الفراديس
على الهوى من بعيد أن يقربه أم النجوم ومر القوم بالعيس
لو قد علون سماوياً موارده من نحو دومة خبت قل تعريسي
هل دعوة من جبال الثلج مسموعة أهل الأياد وحياً بالباريس
أني إذا الشاعر المغرور حرّ بني جارٍ لقبر على مروان مرموس
قد كان أشوس أبا فاورثنا شغباً على الناس في أبنائه الشوس
فأنت ترى أن ليس في هذه الأبيات اقتضاب كالذي رأيت

من قبل بل ان الشاعر قد أحسن المدخل إلى المديح :

ومما تنكب فيه جرير طريقة الجاهليين في افتتاح القصيد بالغزل

قوله في هجاء الفرزدق وقومه :

لقد سرني ألا تعد مجاشع من الفخر إلا عقرباً بصوار

أنا بك أم قوم تفض سيوفهم على الهام ثني بيضة المجبر
وهي قصيدة طويلة .

وقوله من مديح عبد العزيز بن الوليد وفيه من القوة ما ترى :
إليك كلفنا كل يوم هجيرة صد معمعاني تلظى أعابله
على العيس تعروري الفلاة كأنها قطعاً لادمي الجوني نشت ثمائله
وهي طويلة أيضاً .

وأما ما قد يخرج فيه عن وحدة البيت فيعلق بيتاً بآخر فمثل قوله :
فما مغزل ادماء تحنو لشادن كطوق الفتاة لم تشدد مفاصله
بأحسن منها يوم قالت أناظر إلى الليل بعض النيل أم أنت عاجله
ولهذا أشباه من الجاهليين المتقدمين وقد عيب عليهم ، وإن كنا
لا نرى ذلك في هذا العصر الذي نعيش فيه .

وأما عدم تقيده بسبعة أبيات لإعادة القافية فنحو قوله في
عمر بن عبد العزيز :

ألياً صاحبي نزر سعادا لقرب مزارها وذرا البعادا
فتوشك أن تشط بنا قدوف تُكل نياطها القلص الجيادا
إليك شماتة الاعداء أشكو وهجراً كان أوله بعادا
فكيف إذا نأت ونأيت عنها أعزي النفس أو أزع الفؤادا

أُتِيحَ لَكَ الظَّعَائِنُ مِنْ مَرَادٍ وَمَا خُطِبَ أَتَاحَ لَنَا مَرَادٍ
إِلَيْكَ رَحَلْتُ يَا عَمْرُ بْنُ لَيْلَى عَلَى ثِقَةٍ أَزُورُكَ وَاعْتِمَادًا
تَعَوَّدُ صَالِحَ الْأَعْمَالِ إِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَلْزِمُ مَا اسْتَعَادَا
أَقُولُ إِذَا أَتَيْتَ عَلَى قُرُورِي وَآلَ الْبَيْدِ يَطْرُدُ أَطْرَادَا
عَلَيْكُمْ ذَا النَّدَى عَمْرُ بْنُ لَيْلَى جَوَادَا سَابِقًا سَبَقَ الْجِيَادَا
فَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَلْزِمْ مَاقَرَرَهُ الْعُرُوضِيُّونَ فِي الْبَيْتِ الثَّلَاثِ
وَالْتَزَمَ مَاقَرَرُوهُ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ فِي تَهْيِئَةِ لَفْظِ الْقَافِيَةِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَيْهَا مَا مَرَّ مَعَكَ
فِي الْبَيْتِ الْخَامِسِ مِنَ الْآيَاتِ الْمَاضِيَةِ وَقَوْلِهِ أَيْضًا :

عَرَفْتُ بِبِرْقِهِ السُّودَاءَ رَسْمًا مَحْيَلًا طَابَ عَهْدُكَ مِنْ رَسُومِ

فَلَيْتَ الظَّاعِنِينَ هُمْ أَقَامُوا وَفَارَقَ بَعْضُ ذَا الْأَنْسِ الْمَقِيمِ

تُعْطَفُ مِنْ تَوَابِعِ كُلِّ هَجْرٍ عَصِيًّا^(١) بِالْجُلُودِ عَلَى عَصِيمِ

أَعَاذَلْ طَالَ لَيْلُكَ لَمْ تَنَامِي وَنَامَ الْعَاذِلَاتُ وَلَمْ تَنِيَامِي

إِذَا مَا لَمْتَنِي وَعَذَرْتَ نَفْسِي فُلُومِي مَا بَدَا لَكَ أَنَّ تَلُومِي

أَلَمْ أَخْصُ الْفَرَزْدَقَ قَدْ عَلِمْتُمْ فَأَمْسَى مَا يَكْشُ^(٢) مَعَ الْقُرُومِ

(١) العَصِيمُ : العِرْقُ وَوَسْخٌ وَبُولٌ يَبْسُ عَلَى فَخْذِ الْإِبِلِ . يَرِيدُ هُنَا تَوَالِي

الْعِرْقِ وَانْصِبَاحِهِ فَوْقَ الْوَجْهِ . تَعْطَفُ تَلْبِيسُ . (٢) يَهْدُرُ

ومثلك قد قصدت له فأمسى أخا حلم وما هو بالحلم
وفي هذه القصيدة التي يهجو بها الأخطل كثير من هذا التوشيح
وقد لاحظت كيف ينحدر البيت إلى القافية انحداراً وكيف
أن بعض المحسنات كانت تأتيه عفو الخاطر دون تعمد أو تكلف
فمن ذلك وفيه الجنس :

وما زال معقولاً عقال عن الذي وما زال محبوساً عن الخير حابس
ومثله :

أمن سفه الأحلام جاؤوا بقردهم إليّ وما قرد لقرم يصاوله
ومنه وفيه الطباق :

بنينا بناءً لم تنالوا فروعه وهدم أعلى ما بنيتم أسافله
ومنه وفيه المقابلة بين أربعة :

وباسط خير فيكم يمينه وقابض شر عنكم بشمالها
ومنه وفيه الاستخدام :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
ومنه وفيه الالتفات :

أتنسى إذ تودعنا سليمي يعود بشامة سقي البشام

ومنه وفيه رد العجز على الصدر :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يامربع
ومثله قوله :

صمى الرمل جون مستهل ربابه وما ذاك إلا حبٌ من حل بالرمل
ومنه وفيه الاحتراس والشميم :

فسقك حيث حملت - غير فقيدة - هزج الرواح وديمة لاتقلع
ومنه وفيه الإيغال وهو ضرب من المبالغة :

بات الفرزدق عائراً^(١) وكأنه قَعَو^(٢) تعاوره السقا معار
لأنه إذا كان معاراً كان أشد لاستعماله وأقل قيعة فلا يحافظ عليه .
فترى مما تقدم أن الصنعة في شعره لم تكن غير عفو الخاطر ، ولم
يكن له فيها إلا إبداع الذوق المرهف واستحسان النفس الشاعرة .
أما ما يعتمد عليه علماء القواعد فكثير ، منه قول شاعرنا
ويستشهد به في الكلام على الاشتغال :

أثعلبة الفوارس أم رياحاً عدلت بهم طية والحشابة

(١) العائر الذي في عينه عوار .

(٢) والقعو المحور من الحديد أو إحدى خشبتين فيها محور تجري بينهما
بكرة البئر .

وقوله لهشام ويستشهد فيه على أن أو بمعنى بل :

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم لم أحص عدتهم إلا بعداً
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية لولا رجائك قد قتلت أولادي

وقوله ويستشهد فيه على نون الترخيم :

أقلى اللوم عاذل واثمانين وقولي إن أصبت لقد أصابن
وقوله ويستشهد به على شذوذ كسر النون في جمع المذكر

السالم : وانتقده علماء القافية بأن فيه إصرافاً :

عرفنا جعفرأ وبني أبيه وأنكرنا زعانف آخرين

وقوله : واستشهد به على أن أولئك يشار بها لغير العقلاء :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

وقوله واستشهد به على حذف الجار ووصل الفعل بالمنعول

وهو مقصور على السماع

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم على إذن حرام

وقوله ويستشهد به على جواز جمع التمييز ، وفاعل نعم الظاهر

على رأي ، وهو في مديح عمر بن عبد العزيز :

تزود مثل زاد أبيك فينا فنعم الزاد زاد أبيك زادا

ومثله قوله في هجاء الأخطل :

والتغليون بش الفحل فحلهم فحلاً وامهم زلاء منطق
وقوله ويستشهد به على وقوع الجملة صفة للنكرة وجواز
حذف الضمير الواجب ذكره في الجملة التي تكون صفة لربطها
بالموصوف :

وما أدري أغيرهم تناءً وطول الدهر أم مالٌ أصابوا
وفي كتب اللغة وقواعدها كثير من شعره المستشهد به ولا
حاجة إلى استقصاء كل ما تحدث عنه . والديوان المطبوع بين
يديك . تستبين منه على كثرة أخطائه معاني الشاعر
التي تسمو بك إلى كل أفق ، ونطالعك بالسحر والفتنة ، وتحملك
على الإعجاب والإكبار ، فهو ما يزال ينتقل بك من أفق لآخر ،
ويحمل إليك ضروبا من المعاني ، وأفازين من القول ، يصعب تحديدها
فلا أقل من أن تنفع بما مر لأن فيه الغناء .



بعض ما يؤخذ عليه

نأخذ على جرير عيوباً في شعره منها أنه كان (يُصرف) في بعض الأحيان ، والإصراف هو اختلاف إعراب القوافي فتكون قافية مفتوحة وأخرى مكسورة ، ولا يرتكب هذا فحول الشعراء ، وأغلب ما يشيع على لسان الأعراب ، ولكن بعضاً من الفحول وقعوا فيه ، فقال جرير :

عرين من عرينة ليس منا برئت إلى عرينة من عرين
عرفنا جعفرًا وبني عبيد وأنكرنا زعانف آخرين
ونأخذ عليه (فساد الأقسام) أحياناً ، وذلك بأن يقسم الكلام ثم يذكر البعض ويُلغِي البعض الآخر ، مما لا يجب تركه كقوله في بني حنيفة :

صارت حنيفة أثلاثاً : فثلثهم من العبيد وثلث من موالينا
ومن طريف ما يروى أن هذا البيت ذكر في مجلس ، ورجل من بني حنيفة حاضر فيه ، فقليل له من أيهم أنت ؟ فقال : من الثلث الملقى ذكره .

ونأخذ عليه لحناً خطّاه فيه الكثير من العلماء وهو قوله :
ولو ولدت لعنزة جرو كلب لَسُبُ بذلك الجرو الكلابا
فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين
بكلام « كالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع » كما قال ابن شرف
القيرواني .

ونستعجن بعض الألفاظ التي ينبو عنها الذوق الحضري ،
وقد قرنت إلى أقوال فيها كثير من الملاحاة والجزالة والفصاحة كقوله :
ونقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزأت بغيرنا يا بوزع
(فبوزع) هذه كلمة لا تناسب المقام التي أوردت فيه ، ولعل
أثر البادية يأبى إلا أن يظهر في أجمل الأغراض وأحلاها من شعر
جرير .

ويؤخذ على شاعرنا سقط وعي من القول نحو قوله :
تغشى الملائكة الكرام وفاتنا والتغلي جنازة الشيطان
وقوله :

من كل ساجي الطرف أعصل نابه في كل قائة له ظلفان
وقوله :

تغلي المشاقة تبتغي دسم استها ومن المشاقة عندها اكرار

ومثله قوله :

لا تحسبنّ مراس الحرب إذ لقت شرب الكشيش وأكل الحبز بالصير

ومما يعد على جرير من أفن شعره قوله لبشر بن مروان :
قد كان حقك أن تقول لبارقٍ يا آل بارق فيم سُبَّ جرير
إذ جعل بشر بن مروان رسولا ، حتى قال بشر حينما سمع
ذلك : أما وجد ابن المراغة رسولا غيري .

ومثل ذلك قوله في يزيد^(١) بن عبد الملك :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليّ قطينا
فقال يزيد أما والله لو قال « لو شاء ساقكم » لفعلت ذلك
ولكنه جعلني شرطيأله .

وأخذ عليه في هذا البيت أنه عجز أن يفخر بقومه فتعدى إلى
ذكر الخلفاء فزادت قريحته على عقله وأخذ عليه في قوله :
إني إذا الشاعر المغرور حربني جار لقبري على مرّان مرهوس
فقل إن تيمّا ليس بمرّان وإنما هو بذات عرق ، وقبر
معدّ بمرّان .

ومما يعد على جرير قوله :

(١) وقيل الوايد أو هشام أو عبد الملك .

فيا لك يوماً خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر عاذله
فما ينفعه خيرٌ يوؤل إلى شره ، والأجود أن يقول : « فيا لك
يوماً خيره دون شره » .

ويعاب عليه طرده (صائدة القلوب) ثم وصفه لها ، فليته إذ
كان طردها ما وصفها ولا قال :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغرّ كأنه بردٌ تحدر من متون غمام
وقيل لو أنه استعمل كلمة (المرهفات) بدل (المردفات)
لكان أجود في قوله " :

وأوثق عند المردفات عشية لحافاً إذا ماجرد السيف لاعم
ولما قال جرير لابن لجأ :

ياتيم هل لك مثلُ أسرة حاجب أو مثل آل عتبة بن شهاب
قال له قائل : أنت بالأمس تهجوهم والآن تفخر بهم !
وحينما هجا ابن الرقاع وقال له :

يتصّر باع العامليّ عن العلا ولكن أ... ر العامليّ طويلُ
قال له العاملي :

(١) أنظر ص ٨٧ .

أأمك كانت أخبرتك بطوله أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول
فقال له جرير : بل لم أدر كيف أقول .

* * *

هذا بعض ما أخذ على جرير ، وقديماً قيل : إن لكل جواد
كبوة ، ولكل سيف نبوة ، حتى رأينا كبار الشعراء تعثر
وتعاب ، على قلة في الخصومة ، وفراغ في البال ، وانصراف إلى
التهذيب والتنقيح .

وإذا ذكرت أن الدنيا حول جرير كانت هجاء وخصومة ،
وأنه انصرف إلى نزال الشعراء الصارخين من حوله ، أكبرت
منه (أن تعد معائبه) وأن يسقط في ألفاظ كان غيرها أفضل
منها لو أكثر من التنقيح والصقل ، ولكنه كان يهذب شعره
بمقدار ، وكان عليه أن ينتج أكثر من أن يصلح ، وكان من
تمام شاعريته أن تقع على ما تنكر إلى جانب ماتحب وما تعجب به .

—>ooo<—

نماذج من شعره

قال يمدح الحجاج :

هاج الهوى لفؤادك المهتاج
هذا هوى شغف الفؤاد مبرح
إن الغراب بما كرهت لمولع
ليت الغراب غداة ينعب بالنوى
ولقد علمت بأن شرك عندنا
ولقد رميتك حين رحن بأعين
ويعنطق شغف الفؤاد كأنه
قل للجبان إذا تأخر سرجه
فتعلقن ببناات نعش هارباً
من سد مطّلع النفاق عليهم
أم من يغار على النساء حفيظة
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا
ماض على الغمرات يمضي همه

فانظر بتوضح باكر الأحداج
ونوى تقاذف غير ذات خللاج
بنوى الأحمبة دائم التشحاج
كان الغراب مقطع الأوداج
بين الجوانح موثق الأشرار
ينظرن من خلل الستور سواجي
عسل يجدن به بغير مزاج
هل أنت من شرك المنية ناجي
أو بالبحور وشدة الأمواج
أم من يصول كصوله الحجاج
إذ لا يثقن بغيره الأزواج
ماضي البصيرة واضح المنهاج
والليل مختلف الطرائق داجي

منع الرُّشا وأراكم سبل الهدى واللص نكته عن الأدلاج
 فاستوسقوا وتبينوا سبل الهدى ودعوا النجي فليس حين تناجي
 يارب ناكث يبعثين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج
 إن العدو إذا رموك رميتهم بذرى عماية أو بهضب سواج
 وإذا رأيت منافقين تخيروا سبل الضجاج أقمت كل ضجاج
 داويتهم وشفيتهم من فتنة عبراء ذات دواحن وأجاج
 إني لمرقب لما خوفتني ولفضل سيبك يابن يوسف راجي
 ولقد كسرت سنان كل منافق ولقد منعت حقائب الحجاج

وقال يمدح عبد الملك بن مروان :

أنصحو بل فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح
 يقول العاذلات علاك شب أهذا الشيب يمنعي مراحي
 يكلفني فؤادي من هواه ظعائن يجتزعن على رماح
 ظعائن لم يدن مع النصارى ولا يدرين ماسمك اقراح
 فبعض الماء ماء رباب مزن وبعض الماء من سبخ ملاح
 سيكفيك العواذل أرحي هجان اللون كالفرد اللياح
 يعز على الطريق بمنكبيه كما ابتزك الخليع على القдах

تعتز أم حزره ثم قالت
تعلل وهي ساغبة بنيا
سأمتاح البحور فجنّبي
ثقي بالله ليس له شريك
أغنني يافداك أبي وأمي
فإني قد رأيت علي حقا
سأشكر أن رددت علي ريشي
ألستم خير من ركب المطايا
وقوم قد سموت لهم فدانوا
أبجت حمى تهامة بعد نجد
لكم شم الجبال من الرواسي
دعوت المالحدين أبا خبيب
فقد وجدوا الخليفة هبرزيا
فما شجرات عيصك في قریش
رأى الناس البصيرة فاستقاموا
رأيت الموردين ذوي لقاح
بأنفاس من الشبم القراح
أذاة اللوم وانتظري امتياحي
ومن عند الخليفة بالنجاح
بسبب منك إنك ذو ارتياح
زيارتي الخليفة وامتداحي
وأثبت القوادم في جناحي
وأندي العالمين بطون راح
بدهم في ململة رداح
وما شيء حميت بمستباح
وأعظم سيل معتلج البطاح
جأحا هل شفيت من الجماح
ألف العيص ليس من النواحي
بعشات الفروع ولا ضواحي
وبينت المراض من الصحاح



وقال يهجو الأَخطل :

مَتَى كَانَ الْخِيَامَ بِذِي طُلُوح	سَقَيْتَ الْغَيْثَ أَتَيْتَهَا الْخِيَامَ
تَنْكَرَ مِنْ مَعَارِفِهَا وَمَالَتْ	دَعَائِمَهَا وَقَدْ بَلَى الثَّمَامَ
تَغَالَى فَوْقَ أَجْرَعِكَ الْخِزَامَى	بَنُورٍ وَاسْتَهْلَ بِكَ الْغَمَامَ
مَقَامَ الْحَيِّ مَرَّ لَهُ ثَمَانٌ	إِلَى عَشْرِينَ قَدْ بَلَى الْمَقَامَ
أَقُولُ لَصَحْبَتِي لَمَّا ارْتَحَلْنَا	وَدَمَعَ الْعَيْنَ مِنْهُمْ سَجَامَ
أَتَمُّضُونَ الرُّسُومَ وَلَا تَحْيَا ^(١)	كَلَامَكُمْ عَلَيَّ إِذْنِ حَرَامَ
أُقِيمُوا إِنَّمَا يَوْمٌ كَيَوْمِ	وَلَكِنْ الرَّفِيقَ لَهُ ذِمَامَ
بِنَفْسِي مِنْ تَجَنُّبِهِ عَزِيزَ	عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتِهِ لِمَامَ
وَمَنْ أُمْسِي وَأُصْبَحَ لَا أَرَاهُ	وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامَ
أَلَيْسَ لَمَّا طَلَبْتَ فَدَتَكَ نَفْسِي	قَضَاءً أَوْ لِحَاجَتِي انْصِرَامَ
فَدَى نَفْسِي لِنَفْسِكَ مِنْ ضَجِيعِ	إِذَا مَا التَّجَّ بِالسَّنَةِ الْمَنَامَ
أَتَنَسَى إِذْ تَوَدَّعْنَا سُلَيْمَى	بِفَرْعِ بَشَامَةِ سَقَى الْبَشَامَ
تَرَكْتُ مُحَلِّينَ رَأَوْا شِفَاءَ	فَخَامُوا ثُمَّ لَمْ يَرُدُّوا وَحَامُوا
فَلَوْ وَجِدَ الْحَمَامُ كَمَا وَجَدْنَا	بِسُلَامَيْنِ لَا كِتَابَ الْحَمَامَ
فَمَا وَجَدَ كَوَجْدِكَ يَوْمَ قَلْنَا	عَلَى رُبْعِ بِنَازِرَةِ السَّلَامَ

(١) وفي روايته : تَرَوْنَ الدِّيَارَ وَلَمْ تَعُوجُوا (انظر ص ١٩٤) •

أما تجزيني ونجي نفسي
وتكفيني المطي أوار نجم
ضرحت بنا حصى العزاء حتى
كأنّ الرحل فوق أقب جأب
عوى الشعراء بعضهم لبعض
كأنهم الثعالب حين تلقى
إذا أوتعت صاعقة عليهم
فمصطم المسمع أو خصي
إذا شأوا مددت لهم حضاراً
لقد كذب الأخیطل في غرب
وتغلب لا ولاة قضاء عدل
لئن ليمت بنو جشم بن بكر
شفي الوقعات ليس لتغلي
قضى لي أن أصلي خندي
إذا ما خندف زخرت وقيس
هم حدبوا علي ومكنوني
فما لمت البناء ولم يلوموا
أحاديث بذكرك واحتمام
ليل الحامسات به أوام
تقطعت السرائح والخدام
بأجماد الشريف له مصام
على فقد أصابهم انتقام
هزبراً في العرين له انتقام
رأوا أخرى تحرق فاستداموا
وآخر عظم هامته حطام
وتقريباً مخالطه عزام
إذا صاح الجوالب واعتزام
ولا مستنكرون لأن يضاموا
بعاجنة الرحوب فقد ألاموا
محار بعدهن ولا خصام
وعضب في عواقبه السمام
فإن جبال عزي لا تبرام
بأفيح لا يزل به المقام
زيادي حين جد بنا الزحام

إِذَا مَدُوا بِجَبَلِهِمْ مَدَدَنَا بِجَبَلٍ مَا لَعُرْوَتَهُ انْقِصَامُ
 لِيَرْبُوعٍ إِذَا افْتَخَرُوا وَعَدُوا فَوَارِسَ مُصَدِّقٍ لَهَا عِظَامُ
 هُمُ الْمُتَمَرِّسُونَ بِكُلِّ ثَغْرِ وَإِنْ رَكَبُوا إِلَى فِزَعٍ أَسَامُوا
 تَفْدِينَا النَّسَاءَ إِذَا التَّقِينَا وَيُعْطِي حَكْمَنَا الْمَلِكُ الْهَامُ
 وَتَغْلِبُ لَا يَصَاهِرُهُمْ كَرِيمُ وَلَا إِخْوَانُ مِنْ وَلَدُوا كِرَامُ
 إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى سَكْرِ بَفْلَسِ فَنَصُّوْهُ عِنْدَ ذَلِكَ وَالتَّطَامُ
 عَلَى أَسْتِ التَّغْلِبِيَةِ حِينَ تَحْنِي صَلِيهِمْ وَفِي حَرْهَا الْجَذَامُ
 يُشَمُّونَ الْفَلِيسَ وَلَا يَسْمَى لَهُمْ عَبْدُ الْمَلِكِ وَلَا هِشَامُ
 فَمَا عَوِفْتَ يَوْمَ تَحْضُ قَيْسًا فَبَيْضُ الْحَيِّ وَاقْتَنَصَ السَّوَامُ
 لَقَدْ وَلَدَ الْأَخِيْطَلُ أُمُّ سَوْءٍ عَلَى بَابِ اسْتِهَا صَلْبُ وَشَامُ
 أَهَانَ اللَّهُ جِلْدَةَ حَاجِبِيهَا وَمَا وَارَى مِنَ الْقَدْرِ اللَّثَامُ
 وَنَسَوْتَهُ الْخُبَائِثُ مَوْلَعَاتِ بَقْسٍ لَا يَنْيَمُ وَلَا يَنَامُ
 إِذَا مَا الْقَسِ نَادَمْنَ يَوْمًا عَلَى الْخَنْزِيرِ وَأَنْكَشَفَ الْفَدَامُ
 بِدَأْنَ شَوَاءَهُنَّ بِخَصِيَّتِيهِ وَهَنَّ إِلَى جِحَافِلِهِ قَرَامُ
 كَفَيْتَكَ لَا تَقْلُدْ فِي رَهَانِ وَفِي الْأَرْسَاغِ وَالْقَصَبِ انْخَطَامُ

وقال يهجو الفرزدق وينقض قصيدته التي يقول في مطلعها :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا
قَالَ جَرِير :

لَمَنِ الدِّيارُ كَأَنَّها لَمْ تَحْمَلْ
وَلَقَدْ أَرَى بَكَ وَالْجَدِيدَ إِلَى بَلِي
نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِمِثْلِ عَيْنِي مَغْزَلْ
وَإِذَا التَّمَسْتَ نَوَالِها بِجَلْتْ بِهِ
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْمِطْيَ خَواضِعْ
يَسْقِينُ بِالْأَدْمَى فَرَاحَ تَنْوَفَةٌ
يَا أُمَّ نَاجِيَةِ السَّلامِ عَلَيْكُمْ
وَإِذَا عَدَوْتُ فَبَاكَرْتُكَ تَحِيَّةً
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ
أَوْ كُنْتُ أَرْهَبُ وَشَكَّ بَيْنَ عَاجِلْ
أَعْدَدْتُ لِلشَّعْراءِ سَمًا نَاقِعًا
لَمَّا وَضَعْتَ عَلَى الْفَرزدَقِ مِيسْمِي
أَخْزَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مَجاشِعًا
بَيْتًا يَحْمَمُ قَيْنُكُمْ بِفَنائِهِ
وَلَقَدْ بَنَيْتَ أَحْسَنَ بَيْتٍ يَبْتَنِي

بَيْنَ الْكُناسِ وَبَيْنَ طَلْحِ الْأَعْزَلْ
مَوْتَ الْهُوى وَشَفَاءَ عَيْنِ الْمُجْتَلِي
قَطَعْتَ حَبالَها بِأَعْلَى لَيْلِ
وَإِذَا عَرَضْتَ بَوْدَها لَمْ تَبْخَلْ
وَكَأَنَّها قَطَا فَلَاةٌ مَجْهَلْ
زَغَبًا حَوَاجِبُهُنَّ حَمْرُ الْحَوَصَلْ
قَبْلَ الرِّواحِ وَقَبْلَ لَوْمِ الْعَذَلْ
سَبَقَتْ سَروِحُ الشَّاحِبَاتِ الْحَجَلْ
يَوْمَ الرِّحِيلِ فَعَلْتَ مَالِمَ أَفْعَلْ
لَقَنْعَتْ أَوْ لَسَّاتِ مَالِمَ يَسْأَلْ
فَسَقَيْتَ آخِرَهُمْ بِكَأْسِ الْأَوَّلْ
وَضَعْتَ الْبَيْعِثَ جَدَعْتَ أَنْفَ الْأَخْطَلْ
وَبَنَى بِناءَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلْ
دَنَسًا مَقاعِدَهُ خَبِيثَ الْمَدْخَلْ
فَهَدَمْتُ بَيْتَكُمْ بِمِثْلِي يَذْبَلْ

ونفختَ كيرك في الزمان الأول
فانظر لعلك تدعى من نهشل
قتلوا أباك وثأره لم يقتل
مر عواقبه كطعم الحنظل
حتى اختطفتك يافرزدق من عل
خرب تنفج من حذار الأجل
وضعا الفرزدق تحت حد الكاكل
ويعد شعر مرقش ومهلل
غمر البديهة جامحاً في المسحل
ومحل بيتي في اليفاع الأطول
ويفوق جاهلها فعال الجهل
أهل النبوة والكتاب المنزل
حرب تضرم كالخريق المشعل
لمع الربيئة في النيف العيطل
وبنو خضاف وذاك مالم يعدل
أبناء جندلتي كخير الجندل
زهر النجوم وباذخات الأجل

إني بني لي في المكارم أولي
أعيتك مأثرة القيون مجاشع
وامدح سراة بني فقيم إنهم
ودع البراجم إن شربك فيهم
إني أنصبت من السماء عليكم
من بعد صكتي البعيث كأنه
ولقد وسمتك يابعث بمسمي
حسب الفرزدق أن تسب مجاشع
طلبت قيون بني قفيرة سابقاً
إني إلى جبلي تميم معقلي
أحلامنا تزن الجبال رزاة
فارجع إلى حكى قريش إنهم
فاسأل إذا خرج الخدام وأحمشت
والخيل تنحط بالكماة وقد رأوا
أبنو طهية يعدلون فوارسي
وإذا غضبت رمى ورائي بالخصى
عمرو وسعد يافرزدق فيهم

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله
وافخر بضبة إن أمك منهم
وقضت لنا مضر عليك بفضلنا
إن الذي سمك السماء بنى لنا
أبلغ بني وقبان أن حلومهم
أزري بجلعكم الفياش فأنتم
لو... أمك بعد أكل خزيرها
في مزبد عمق كأن مشقة
نصف السيوف وغير كم يعصي بها
وبرحران تخضخت أصلاؤكم
خُصي الفرزدق والخصاء مذلة
هاب الخوانن من بنات مجاشع
وكان تحت ثياب خور نسائهم
قعدت فقيرة بالفرزدق بعدما
ألهى أباك عن المكارم والعلا
ولدت فقيرة قد علمتم خبيثة
بزود أرقصت القعود فراشها

مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
ليس ابن ضبة بالملم الخول
وقضت ربيعة بالقضاء الفصيل
بيتاً علاك فما له من منقل
خفت فما يزنون حبة خردل
مثل الفراش غشين نار المصطلي
لتعد مثل فوارس لم تفعل
خل المجازة أو طريق العنصل
يابن القيون وذلك فعل الصيقل
وفزعتم فزع البطان العزل
يرجو مخاطرة القروم البزل
مثل المحاجن أو قرون الأيل
بطاً يصوت في صراة الجدول
جهد الفرزدق جهده لا يأتي
لي الكتائف وارتفاع الرجل
بعد المشيب وبظرها كالمجمل
رعثات غنبلها الغدفل الأرعل

أشركت إذ حمل الفرزدق خبثه حوض الحمار بليلة من نبتل^(١)
أبلغ هديتي الفرزدق إنها نقل يزاد على حسير مثقل
أنا نقيم صفا الروؤوس ونختلي رأس المتوج بالحسام المقصل

* * *

وقال يتغزل ويهجو الأخطل :

بان الخليط ولو طوَّعت ما بانا وقطعوا من جبال الوصل أقرانا
حي المنازل إذ لا نبتغي بدلاً بالدار داراً ولا الجيران جيراناً
قد كنت في أثر الاظعان ذا طرب مروّعاً من حذار البين محزانا
يارب مكثب لو قد نعت له باك وآخر مسرور بمنعانا
لو تعلمين الذي تلقى أويت لنا أو تسمعين إلى ذي العرش شكوانا
كصاحب الموج إذ مالت سفينته يدعو إلى الله إسراراً وإعلاناً
يا أيها الراكب المزجي مطيته بلغ تحيتنا لقيت حملاًنا
بلغ رسائل عنا خف محملها على قلائص لم تحملن حيراناً
كما نقول إذا بلغت حاجتنا أنت الأمين إذا مستأمن خانا
نهدي السلام لأهل الغور من ملح هيات من ملح بالغور مهدانا
أحب إلي بذاك الجزع منزلة بالطلع طلحاً وبالاعطان أعطانا

(١) نبتل مملوك لام الفرزدق جرير يرميها به ، ويريد بالحمار غالباً
أبا الفرزدق .

يأليت ذا القلب لاقى من يعله
أو ليتها لم تعلقنا علاقتها
هلا تخرجت مما تفعلين بنا
قالت ألم بنا إن كنت منطلقاً
يا طيب هل من متاع تُمتعين به
ما كنت أول مشتاق أخي طرب
يا أم عمرو جزاك الله مغفرة
ألست أحسن من يمشي على قدم
يلقى غريمكم من غير عسرتكم
لا تأمن فإني غير آمنه
قد خنت من لم يكن يخشى خيانتكم
لقد كتمت الهوى حتى تهمني
كاد الهوى يوم سلمانين يقتلني
وكاد يوم لوا حواء يقتلني
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم
من حبكم فاعلمي للحب منزلة
لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت

أو ساقياً فسقاه اليوم سُلوانا
ولم يكن داخل الحب الذي كانا
يا أطيب الناس يوم الدجن أردانا
ولا أخالك بعد اليوم تلقانا
ضيفاً لكم باكرًا يا طيب عجلانا
هاجت له غدوات البين أحزانا
ردي على فؤادي كالذي كانا
يا أملح الناس كل الناس إنسانا
بالبدلُ بخلا وبالإحسان حرمانا
غدر الخليل إذا ما كان ألوانا
ما كنت أول موثوق به خاناً
لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
وكاد يقتلني يوماً بيدانا
لو كنت من زفرات البين قرحانا
إلا على العهد حتى كان ما كانا
نهوى أميركم لو كان يهوانا
أسباب دنياك من أسباب دنيانا

يا أم عثمان إن الحب عن عرض
ضمنت بموردة كانت لنا شرعاً
كيف التلاقي ولا بالقيظ محضركم
نهوى ترى العرق إذ لم نلق بعدكم
ما أحدث الدهر مما تعلمين لكم
أبدل الليل لانسري كواكب
يارب عائذة بالغور لو شهدت
إن العيون التي في طرفها مرض
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به
يارب غابطنا لو كان يطلبكم
أرينه الموت حتى لا حياة به
طار الفؤاد مع الخود التي طرقت
مثلوجة الريق بعد النوم واضعة
تستاف بالعنبر الهندي قاطعة
بتنا نرانا كأننا ما لكون الا
قالت تعز فإن القوم قد جعلوا
لما تبينت أن قد حيل دونهم

يصبي الحليم ويبكي العين أحيانا
تشفي صدى مستهام القلب صديانا
منا قريب ولا مبدأ مبدانا
كالعرق عرقاً ولا السلان سلانا
للجبل صرمًا ولا للعهد نسيانا
أم طال حتى حسبت النجم حيرانا
عزت عليها بدير اللج شكوانا
قتلنا ثم لم يحين قتلانا
وهن أضعف خلق الله أر كانا
لاقي مباعدة منكم وحرمانا
قد كن ذنك قبل اليوم أديانا
في النوم طيبة الأعطاف مبدانا
عن ذي مئان تمج المسك والبانان
هم الضجيع فلا دنيا كدنيانا
ياليتها صدقت بالحق رؤيانا
دون الزيارة أبواباً وخزاننا
خلت عساكر مثل الموت تغشانا

ماذا لقيت من الأظعان يوم قنّى
 أتبعهم مقلة إنسانها عرق
 كأن أحداهم تُحدي مقفية
 يا أم عثمان ما تلقي رواحلنا
 تُحدي بنا نجب دمي مناسمها
 ترمي بأعينها نجداً وقد قطعت
 يا حبذا جبل الريان من جبل
 وحبذا نفحات من يمانية
 هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتمكم
 هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً
 أزمان يدعونني الشيطان من غزلي
 من ذا الذي ظل بغلي أن أزورك
 ما يدري شعراء الناس ويلهم
 جهلاً تمنى حدائي من ضلالتهم
 غادرتهم من حسير مات في قرن
 مازال جبلي في أعناقهم مرساً
 من يدعني منهم ينبغي محاربتي

يتبعن مغترباً بالبين ظلعانا
 هل ما ترى تارك للعين إنسانا
 نخلٌ بلهم أو نخلٌ بقرانا
 لو قست مصبغنا من حيث ممسانا
 نقل الحزاي حزاناً فحزاناً
 بين السلوطح والروحان صوانا
 وحبذا ساكن الريان من كانا
 تأتيك من قبل الريان أحياناً
 عند الصفاة التي شرقي حوراناً
 عيش بها طالما احلولى وما لانا
 وكن يهوينني إذ كنت شيطاناً
 أمسى عليه ملك الناس غضباناً
 من صولة المخدر العادي بخفاناً
 فقد حدوتهم مثني ووجدانا
 وآخرين نسوا التهذار خصياناً
 حتى اشتفيت وحتى دان من دانا
 فاستيقنن أجبه غير وسنانا

إياكم ثم إياكم وإيانا
 فاجعل لأملك ١٠٠٠ ر القس ميزانا
 للناس ظلماً ولا للحرب إدهانا
 من خندف والذرى من قيس عيلانا
 ما كنت أول عبد محلب خأنا
 مثل اجتداع القوافي وبرهانا
 لا يستفغن إلى الديرين تحنانا
 نادين يا أعظم القسين جردانا
 ومسحهم صلبهم رحمان قربانا
 بالخذ أو تجعلوا القنوم ضميرانا

* * *

ماعض نابي قوماً أو أقول لهم
 قل للأخيطل لم تبلغ موازنتي
 إني امرؤ لم أرد فيمن أناؤه
 أحي حمي بأعلا المجد منزلتي
 قال الخليفة والخنزير منهزم
 لاقى الأخيطل بالجلولان فاقرة
 يا خزر تغلب ماذا بال نسوتكم
 لما روين على الخنزير من سكر
 هل تتركن إلى القسين هجرتكم
 لن تدر كوا المجد أو تشروا عباكم

وقال يرثي ولده سواده :

من للعرين إذا فارقت أشبالي
 بازٍ يصصر فوق المرقب العالي
 رهن الجياد ومد الغاية العالي
 قرب باكية بالرمل معوال
 حنت إلى جلد منه وأوصال

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم
 لكن سواده يجلو مقلتي لحيم
 قد كنت أعرفه مني إذا غلقت
 إلا تكن لك بالديرين باكية
 كأماً بو عجل عند معهده

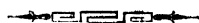
ترتع مانسبت حتى إذا ذكرت
زدنا على وجدها وجداً وإن رجعت
فارقني حين كف الدهر من بصري
إن الشويّ بذى الزيتون فاحتسبي
ردت همام حر الجوف مشكال
في القلب منها خطوب ذات بلبال
وحين صرت كعظم الرمة البالي
قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي

* * *

وقال يرثي زوجه خالدة بنت سعد :

لولا الحياء لعادني استبعاد
ولقد نظرت وما تمتع نظارة
ولّته قلبي إذ علّتي كبرة
أرعى النجوم وقد مضت غورية
نعم القرين وكنت علق مضنة
عمرت مكرمة المساك وفارقت
فستى صدى جدث يبرقة ضاحك
هزم أجش اذا استحار ببلدة
متراكم زجل يضيّ وميضه
كانت مكرمة العشير ولم يكن
ولقد أراك كسيت أجل منظر
ولزرت قبرك والحبيب يزار
في اللحد حيث تمكن المحفار
وذوو التأم من بنيك صغار
عُصّب النجوم كأنهن صوار
وأرى بنعف بلية الأحجار
مامسها صلف ولا إقتار
هزيم أجش وديمة مدرار
فكأنما بجوائها الأنهار
كالبلق تحت بطونها الأمهار
يخشى غوائل أم حزرة جار
ومع الجمال سكيّنة ووقار

والريح طيبة إذا استقبلتها	والعرض لا دنس ولا خوار
وإذا سریت رأيت نارك نور	وجهاً أغر يزينه الأسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا	والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما	نصب الحجيج ملبدين وغاروا
يانظرة لك يوم هاجت عبدة	من أم حزرة بالنميرة دار
تحبى الروامس ربها فتجده	بعد البلى وتميته الأمطار
وكان منزلة لها بجلاجل	وحي الزبور تجده الأحبار
لا تكثرن إذا جعلت تلومني	لا يذهبن بملك الإكثار
كان الخليل هم الخليل فأصبحوا	متبدلين وبالديار ديار
لا يلبث القرناء أن يفرقوا	ليل بكر عليهم ونهار
أفام حزرة يافرزدق عبت	غضب المليك عليكم القهار
كانت إذا هجر الخليل فراشها	خزن الحديث وعفت الأسرار
ليست كأملك إذ يعض بقرطها	قين وليس على القرون خمار



وقعت في الكتاب أخطاء معظمها ظاهر نشير بعضها فيما يلي :

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٩	١٠	قبسًا	علقمة	٩٥	١	ابنا	ادبنا
١٠	٥	الغراس	الغراسة	٩٦	٣	المصرع	المصرع
١٤	٧٥	بأبيه	لأبيه	٩٦	٧	واليامة	من اليامة
١٥	٧	أن	أنه	٩٨	٤	جعثن	جعثن
١٥	١٤	جربير ليست	جربير بايات ليست	٩٩	١١	إنهم	الم تر أنهم
٢٩	١٠	إن	أن	١١١	١٣	لغالب	ولا عطية لغالب
٣١	٩	فكأن	فكان	١١٣	١	تسيبه	تشبيهه
٥٤	١٥	فنداهما	فغداهما	١١٧	٦	عداء	عداد
٥٦	٣	شغل	الشغل	١٢٧	٨	نعوة	نعوة
٥٩	١٤	الذأي	الذأي	١٢٨	١٣	بهذا	بعد هذا
٦١	١٠	القيحة	القيحة	١٣٢	٦	جربير	جربير ونخره
٦٥	٣	ذلك	من ذلك	١٤٩	٣	لم يبلغ	لم يبلغ مبلغ
٧٤	٨٥	فبعث	فبعث	١٦٥	٣	فُضِّل فيه	فُضِّل
٧٤	١١	بهن	بها	١٦٨	٢	قصيدة	قصيده
٧٦	٦	حطبي	حطبي	١٧٦	٩	قرارا	قرار
٧٩	٦	شواء	شواء	١٨٥	١٣	القريب	الغريب
٨٣	١١	وصد	خزي	١٨٨	٩	ورزمت	وارزمت
٨٤	١٣	الباهلة	لباهلة	١٨٨		هامش (٢)	حنت
٨٥	٣	النايزة	لنايزة	١٨٩	١٠	مروان	مران
٨٨	٥	إلا	ألا	١٩٠	٥	قطًا	قطا

ضع في ص ٩ بين السطوين ٧ و٧ هذا الشطر: ينهل سماء من بعادي وبعل

الفهرس



الموضوع	الصحيفة	الموضوع	الصحيفة
أحكامه ودعاويه	١٠٠	— ١ —	
من صفوة الأحكام	١٠٤	تمهيد	
في مسالك الحياة	١١٤	المنهاج	٤
نزعته السياسية	١١٧	الرجل : قصة حياته	٥
نزعته الدينية	١٢١	قصة حياته	٧
— ٢ —		فساد بيئته	١٤
الشاعر	١٢٥	الخصومة الكبرى	١٧
دراسة أشعاره	١٢٦	ضربه في الأرض	٢٠
عقربته	١٢٧	في حمى الخلافة	٣٢
الهجاء	١٣٠	اتصال جرير بعبد الملك	٣٢
الغزل	١٤١	وفادته على الوليد بن عبد الملك	٤٣
الرناء	١٤٦	عند سليمان بن عبد الملك	٤٩
فخره	١٤٩	عند عمرو بن عبد العزيز	٥١
مديحه	١٥٢	طبيعته	٦١
بقية الأغراض	١٥٦	أثر هجائه	٧٢
مميزات عقربته	١٥٩	جرير وبنو نمير	٧٦
استطلاع آفاه	١٧١	الشعراء المتألبون	٧٦
بعض ما يؤخذ عليه	١٩٦	بجمله	٩٠
نماذج من شعره	٢٠١	من أساطير الأولين	٩٥

للسؤلف :

صريح الغوري

وراسته

اضباره واسطاره

(مطبوع)

وراسته

صريح الغوري

(تحت الطبع)

قلب الشاعر

(تحت الطبع)

ومستهل الآداب وكتب مدرسية مقررة مطبوعة.

